بعد الأوان

مجموعة قصصية

محمد سعيد العريان

www.elmohrereladbe.com

obeikan.com

بعد الأوان...

يا الله! وفي الدنيا هذا الجمال؟

فتاة، وما أعرف مثلها فيمن رأيت!

أتراها كانت تعرف أين هي من أحلام فتيان الحي؟

وكان لها من جاه أبيها جمالٌ إلى جمال، فاجتمعت لها أسباب الفتنة والإغراء...

ورآها صديقي فتبدل غير ما كان، وأنه لشاب وإنها لفتاة، ولكنها... ولكنه...

وجاءني ذات مساء وفي عينيه دموع... يا لي مما أرى! صديقي يبكي! هذا الذي كنت أظنه لا يحمل من هم الدنيا إلا مثل ما تحمل نعله من تراب الأرض! يا عجباً!

وفتحت له صدري فآوى إليه، ومضى يحدثني بخبره (... وما يليق أن أبقى اليوم عزباً... وقد جاوزت الخامسة والعشرين!)

وابتسمت؛ فما سمعت صديقي يتحدث قبل عن الزواج بمثل هذا الوقار المحتشم. لقد استطاعت امرأة واحدة أن تحمله على رأي لم يكن واحد من أصاحبه جميعاً يستطيع أن يحمله على الإيمان به.

ويا طالما قلنا ويا طالما أجاب...!

ومضى صديقي في حديثه:

(وأجمعت أمري على أن تكون لي؛ فما يرضيني أن لي بها كلّ متاع الدنيا. لقد وجدتها، وهي حسبي من دنياي!

(وراح الرسول عن أمري يؤامرها ويرود لي الطريق؛ وكتم عنها أسمي وخبري ومكاني بين الناس؛ فما كان إلا أن سألته: وكم جنيهاً يقبض في كل شهر؟

(وأجابها الرسول بما أجاب، فضحكت ساخرة وقالت: أثني عشر جنيهاً؟ يالـه من عروس! فكم يعطي الطباخ وكم يعطي السوّاق...؟

(وعاد إليّ الرسول بجوابها...!)

واطرق صديقي برهة، ثم رفع رأسه وشفته تختلج وفي عينيه بريق. وابتسمت ثانية، وقالت: فما غضبك يا صديقي مما قالت؟ أن لها في الحياة ميزانها الذي تقيس به أقدار الرجال؛ وأن للحياة موازينها؛ فما ضرك أن تكون في ميزانها ما تكون وأنت أنت.

إن معك الشباب والقوة، وأن لك غداً يبتسم ويرفّ، وإن دماً في أعراقك يتحدث به التاريخ؛ فهل يخدعك عن كل أولئك أن فتاة تقول...؟

وأمسكت عن تمام الحديث؛ فقد رأيت في عيني صاحبي ما قطعني وردني إلى الصمت!

وعاد إلى حديثه:

(وددت يا صاحبي لو لم يكن كل أولئك وكانت هي...؟)

ورأيتني منه على حال لا يجدي معها إلا أن أسكت؛ فسكت! وودّعني صديقي بالوجه الذي لقيني به، ومضى لشأنه يا لقلوب الشباب من سلطان الحب!

ولقيته بعد ذلك مرات؛ ولكنه كان شابّاً غير من أعرف هذا الذي كان لا يعرف من فروض الحياة على الحي إلا أن يبتسم ويضحك، ويعبث بكل شيء، ويسخر من كل شيء - قد عاد في عبوسه وتزّمته وصرامة نظرته إلى الحياة خلقاً آخر!

يا عجباً! أين ما صار مما كان؟

تمرُّ به الجميلة الفاتنة قد أخذت زخرفتها وأزَّينت، فما تظفر منه إلا بالنظرة العابرة!

ويسمع النكتة البكر تضجّ لها جنبات المجلس بالضحك والتهليل فما تنال منه إلا بسمةً خاطفة!

وتتداعى أمانيُّ الشباب في معترك الحديث من حوله فما تسمع منه إلا أنةً خافته!

ويتبارى الفتيان فيما يحكون من أقاصيص الحب وغزوات الشباب فما ترى على وجهه من دلائل يقظة الوجدان إلا سبْحة لطيفة من سبحات الذكرى، ثم خفقة طرف وخلجة شفة!

ثم يسمع أحاديث الزواج والخطبة... فتراه كما ترى جندياً في إجازة يتلقى أخبار معركة حربية مظفرة وبينه وبين الميدان أبعاد وأبعاد!

ترى ماذا يتوقع أن يسمع؟

شئ واحد لم يغيره الزمن من أخلاق صاحبي: هو سخاء يده؛ فما عرفت في أصحابي من قبل ومن بعد أكرم يداً منه بما يملك!

وترادفت الأعوام، ولم يتزوج صديقي... ولم تتزوج صاحبته!

أتراها كانت تعلم من خبره ما أعلم؟ ومن أين لها؟... أن لصاحبي من الكبرياء ما يمنعه أن يلتمس إليها الوسيلة بعد ما كان... وإن... وأن الخطاب لتزدحم أقدامهم على بابها فما تعرف كم ردّت بالخيبة والخذلان!

أم تراها تعرف أسمه؟... هذا الذي لا تذكر من صفاته - إن ذكرتْ - إلا أنه شاب يبلغ دخله في الشهر اثني عشر جنيهاً، بعث إليها مرة يخطبها فردّته... وكم في خدمة الدولة من شبان يبلغ دخلهم ما يبلغ دخله؛ وحسبه هذا تعريفاً بين آلاف من النكرات!

ولكن صديقي اليوم في منصب رفيع. لقد سماه به جده وعمله إلى ما لم يبلغ أحد من نظرائه! أتراه يوازن اليوم بين ماضيه وحاضره؟

لقد مضى منذ تلك الليلة التي زارني فيها صديقي زيارته خمس عشرة سنة!

ياه. . .! ما أسرع ما تمرّ السنون!. . . أين أنا اليوم مما كنت يومئذ؟

لقد كنت يومئذ فتى في باكر الشباب، ولم يجر حدّ الموسى على عارضه بعد؛ وإنني اليوم لزوجٌ وأب، وإن في رأسي لشعرات بيضاً ما أن يخفيها ميل الطربوش ولا صنعة الحلاق!. . .

وصديقي لم يزل عزباً. . . صديقي الذي كان يخشى أن تفوته سن الزواج، منذ خمس عشرة سنة!

أين هو اليوم؟ وأين حاضره وماضيه؟

لقد ضربت بيني وبينه ضربات الدهر فلم ألقه منذ أعوام. وددت لو أعرف من خبره!

وخرجت أمس من داري على ميعاد. فأني لفي طريقي إذ لقيته! يا للحظ!

وأقبلت عليه وأقبل عليّ؛ وهممت أن أسأله حين بادرني بقوله: (إنني أدعوك بعد غد إلى داري. . . . . .)

- تدعوني؟...

- نعم، لقد اتفقنا أن يكون الزفاف بعد غد!

- بمن؟

- وهل حسبتني أرضى يوماً أن لي بها كلَّ متاع الدنيا!

إنها هي... لقد ضرب القدر بيننا موعداً فلم يخلفه. إن لكل شئ أوانه!

... وكما جلس صديقي مني مجلسه ذات مساء، منذ خمس عشرة سنة ليحدثني بخبره - كان مجلسه الليلة مني...

وكان في عينيه غير البريق، ولصوته لحن ورنين، وفي عينيه دموع؛ وكانت الكلمات ترتعش على شفتيه؛ لأن فيها نبضات قلب حي. وصعّدت نظري إليه؛ فرأيت في فوديه شعرات سوداء في شعر أبيض، كأنما كانت لتشير إلى أنه مازال هنا بقية من شباب.

ومضى صديقي في حديثه...

(... ولم يعد إليها رسولي منذ كان ما كان؛ وما عرفت أسمي ولا جاءها خبر من خبري بعد؛ وكأنما كان يدخرها لي القدر، فلم تتزوج، وأرتد الخطاب جميعاً عن بابها مخذولين، وآن الأوان.....

(هل جاءك يا صديقي أن مرتبي اليوم في الحكومة ثلاثون جنيهاً في الشهر، غير ما أكسب من أعمالي الخاصة؟...

وبعثت إليها رسولاً آخر يؤامرها للمرة الثانية...)

وضحك صديقي ضحكة مرحة، ثم عاد يقول:

- أتذكر ليلة جلست إليك أحدثك مثل حديث الليلة، منذ... منذ كم...؟

(... وقالت للرسول وقال لها؛ ثم سألته: وكم دخل صاحبك في الشهر؟ فأجابها... وكان القدر قد هيأ أسبابه، فأجابت... وزرتها من بعد، وتم الاتفاق!)

قلت لصاحبي:

- فهل عرفت هي أنك أنت أنت،... هل عرفت أنك سعيت لخطبتها مرة منذ خمس عشرة سنة فردتك؟

فقال:

(وماذا يعنيني، عرفت أو لم تعرف؟ حسبي إنها اليوم لي؛ وأن ما أرادته قد كان!)

ووجد المسكين تعبير رؤياه بعد خمس عشرة سنة من عمر الشباب، ووجدت تعبير أمانيها. وباعت المسكينة شبابها وشبابه بثمن بخس، حين تأبتْ عليه، ومعه حرارة الشباب ونضارة العمر وسعادة الحب لترضاه من بعد وهو شبابٌ مدبر، ونجم آفل، وشعلة إلى رمادا!...

قلب أم...

صباحٌ ومساء، يقظةٌ ونوم، وأمنيةٌ بالنهار تتراءى حُلماً بالليل، وعجلةُ الزمن تدور فتطوي العمر وتختزل الحياة... هذه هي الدنيا...!

يا ويلتا!... وفي الناس من يعيش دنياه كما يدور الثور في الطاحون: يدور ويدور ولا يزال يدور؛ لا يدري أين ينتهي؛ ويمضي على وجهه في طريق طويلٍ لا يقف عند حد ولا ينتهي إلى غاية، وحوله أربعة جدران!

وهل الحياة إلا يومٌ مكرر؟

ما أمس؟ وما اليوم؟ وما غد؟... إن هي إلا رسومٌ متشابهة تتعاقب على مرآة مثبتة في جدار قائم. الصورة واحدة ولكنها تلوح وتختفي، وتزعم المرآة أنها ثلاثة شخوص أطافت بذاك المكان!

ولولا خداع النفس وأباطيل المنى ما طابت الحياة!

... واستيقضت (الأم) ذات صباح كما تستيقظ كل صباح؛ فأبدلت ثوباً بثوب وجثَتْ في محرابها تصلي لله وتدعو..

كانت تعيش وحدها في هذه الدار المتداعية منذ سنوات!

لقد فارقها (الرجلُ) فراق الأبد، وحمله الرجال على الأعناق إلى مثواه؛ ولكن ذكراه بقيت معها في ولديه...

...وبكرتْ إليه في الغداة تنثر الزهر على قبره وفي نفسها لهفة وفي عينيها دموع؛ ثم تحولت عنه إلى ولديه لتجفف في صدرهما دموعها!

وآلت منذ اليوم أن تكون لهذا الطفل وأخته أما وأباً... وبَرّت بما وعدتْ!

كان ذلك منذ أربع عشرة سنة!

أما الفتاة فقد شبَّت واكتملت ونضجت ثمرتُها فانتقلت من دار إلى دار... وباحت بمكنونها إلى زوجها الشاب واستمعت إلى نجواه... وعرفت دنيا جديدة!.. أتراها تذكر اليوم أمها؟... أَلاَ إن أمها لقانعةٌ راضية بما بلغتْ من أمانيها.. لقد تحققت لها أمنية من أمنيتين...

وأما الفتى فقد قطع في سبيله مرحلتين وانتهى إلى الجامعة؛ فما أهون ما بقى!.. إنه يعيد عن أمه منذ سنوات ثلاث، يجاهد جهاده ليبلغ مأمله، ولم يبق إلا خطوة واحدة!...

وأما الأم فإنها في وحدتها من تلك الدار، وما تزال تصلي لله وتدعو ليحقق لها ما بقي!

يا لله! أهذه هي؟ لَشَدَ ما غيرتها الأيام!

. . . كان لها جاه ومال، وكان لها شباب وفتنة، وكانت حياتها أغنية ضاحكة، كلها مَرَح ونشوة ودلال. . . يا للمسكينة! أين هي اليوم مما كانت منذ أربع عشرة سنة؟

أتُرى مرآتها تحدثها بما كان وبما صار، كعهدها يوم كانت. . .؟ أين تلك المرآة؟. . . لقد علاها غبارُ السنين فما لها عينٌ تنظر ولا لسانٌ يصف!

هاتان عينان قد انطفأ بريقهما فما لهما هَمْس ولا نجوى!

وهاتان وجنتان ذابلتان ليس لهما أَرَجٌ ولا شذى!

وهاتان شفتان قد أطبقتا على ابتسامة حزينة ليس لها صوت ولا صَدى!

وهذا الشَّعر - ما كان أجمله يوم كان! - قد خَطَّت عليه الليالي سطوراً بيضاء في صحيفة مسودة؛ إن فيها تاريخَ جهادٍ نبيل، أربعة عشر عاماً بلا وَني ولا كلال!

. . . لقد بذلت لولديها أغلى ما كانت تملك: بذلت المالَ والشباب، وبرّئت من شهوات النفس وأوهام المنى؛ ونسيتْ كل شيء مما كانت تطمح إليه، إلا شيئاً واحداً، عاشت ما عاشت له، وبذلت ما بذلت من أجله، وخاطرت بما خاطرت في سبيله. . ولَديها العزيزين!. . . أما إحداهما فقد بلغتْ، وأما الثاني. . .

إنها لقريرة العين على ما جاهدت وبذلت؛ لأنها من الغاية التي تهدف إليها على خطوات!

. . . وفرغت الأم من صلاتها ودعائها؛ فنهضت متثاقلة إلى صوانها، ففتحته، فأخرجت منه كِسرة جافة، فبلَّتها تحت الحنفية وأخذت تلوكها بين فكيها؛ ثم صعدت إلى سطح الدار تتشمس!. . .

وأمسكت عوداً من الحطب تهش به على دجاجها وهي تنثر له الحبّ وفتات الخبز الناشف. إن لها في هذا المكان لسَلوة وأنساً، وإنها لتجد من هذه الطيور أُسرة تأنس إليها وتتسلى بمرآها؛ بضع دجاجات وديك؛ هذا كل ما بقى لها من أُنس العشير!

وانحنت على خمَّ الدجاج فأخذت ما فيه من بيض، ثم هبطت الدَرج تستند إلى الحائط حتى بلغت غرفتها، فوضعت ما معها من البيض في كيس النخالة، وجلست في النافذة ترقب ساعي البريد. . .

إنه يوم السبت، وقد تعودتْ أن تلتقي في مثل هذا اليوم من كل أسبوع رسالة من ولدها لتطمئن. . .

وجاء ساعي البريد فسلَّم إليها الرسالة، ففضَّتها معجلةً وقرأت. . .

إنه قادم بعد يومين ليراها. . .

يا فرحتا! إن لها عيداً من دون الناس!

ووفَرتْ الأمُّ من غذائها لعشائها، وقامت إلى الصوان فأخرجتْ ثوبها الجديد الذي خاطته منذ عامين؛ فرتقتْ ما فيه من فتوق، استعداداً ليوم الاستقبال السعيد!

وكنستْ، ونظفتْ، وهيأت فراش الضيف؛ وجلست تعدّ الساعات وتهيئ برنامج الاستقبال؛ ونامت ليلتها تحلم...

ومضى اليومان وحلَّ الميعاد، وجلست الأم وراء الباب ترقب تقدم فتاها وقد هيأت ما هيأت لاستقباله...

هكذا كانت تفعل كلما حان موعد زيارته وإن له زيارة في كل شهر:

وتلقت الأم ولدها بالترحيب والعناق؛ وكأنما عاد إليها الشباب؛ فإن في عينيها بريقاً، وفي خديها حمرة، وعلى شفتيها ابتسام، وفي جبينها ألق!

وجلس إليها ساعة يحدثها وتحدثه؛ ثم نهض يتهيأ للخروج ليجول في المدينة جولة؛ ومشى يختال في زيَهِ وزينته، وأمه تشيّعه بعينيها من النافذة فرحانة!

لا عليها مما تقاسي من الجوع والظمأ والحرمان وإنه لسعيد! حسبها من سعادة العيش أن يكون ولدها كما يتمنى لنفسه؛ إنها لتكتم عنه وعن الناس ما تجد من الضيق والحرج

وقسوة الحياة؛ وماذا يجدي عليها أن يعرف إلا أن يحزن ويتألم؟

. . وتوارى الفتى عن عينيها في منعطفات الطريق، فابتعدت عن النافذة وعلى خديها دموع وراحت إلى الصوان تفتحه لتخرج صندوقها الصغير، الصندوق العزيز الذي يضم ذكريات الماضي جميعاً؛ ويضم أماني المستقبل. .

في هذا الصندوق أهدى إليها زوجها الذي فقدتْه منذ بضع عشرة سنة - هديةَ العرس الغالية؛ وفي هذا الصندوق كانت تحفظ ما تحفظ من حلاها وجواهرها، يوم كان لها حلي وجواهر؛ وفي هذا الصندوق كانت تدخر ما تدخر من مال لتنفق على ولديها حتى تبلغ بهما مبلغها. . . فماذا يضم صندوقها العزيز اليوم؟

بضعة جنيهات، وقرط مكسور، وسوار من الذهب: هذا كل ما هناك!. . . وإن بين ولدها وبين الغاية التي يهدف إليها بضعة أشهر!. . . ماذا يجدي كل ذلك؟

. . . وتركته في فراشه نائماً يحلم، وبكرت إلى السوق وفي يدها القرط المكسور وسوارها، تشد عليهما أناملها المرتجفة! وعادت بعد ساعة ومعها مال!

واستيقظ الفتى ليقص على أمه رؤياه وهو يضحك في مرح ونشوة، ويمنّيها بما ينتظر من السعادة يوم يكون ويكون! وابتسمت...!

ورفعت عينيها إلى السماء وعلى شفتيها نجوى خافتة، وفي قلبها أمل!

وقامت تودعه إلى الباب وأعطته ما طلب، لم تحرمه من شيء في نفسه؛ وانثنت إلى غرفتها لتضع الصندوق الفارغ في موضعه من الصوان!

ومضى الفتى على وجهه لا يبالي ما خلف وراء ظهره!

منذا الذي يرى هذا الفتى المتأنق الجواد فيعرف من يكون؟ إنه هو نفسه لا يعرف!.. وأمه حيث تركها، تعيش من دنياها بين صباح ومساء، ويقظة ونوم، وأمنية بالنهار تتراءى حُلماً بالليل، وعجلة الزمن تدور فتطوي الحياة وتختزل العمر، وهي لا تدري. هذه هي دنياها! ولكن لها يوماً تترقب مطلعه على شوق ولهفة؛ ولكن متى...؟ أترى هذا اليوم حين يجيء يرد عليها الشباب المدبر والعمر الذي ضاع!

وانقضت بضعة أشهر، وحان اليوم الذي كانت تنتظر؛ ودخل إليها زوجُ ابنتها ليزف إليها البشرى... وكانت راقدة في فراشها تحلم!...

وجلست في فراشها، وأشرق وجهها بابتسامة راضية، وقبلَّت البشير قبلة، ثم مال رأسها على الوسادة. . . وكانت تبتسم. . .!

وهتفت في صوت خافت: الآن أديت واجبي! وعادت الابتسامة إلى شفتيها أكثر إشراقاً وفتنة!

ودارت بعينيها في أرجاء الغرفة حتى استقرت على صورته في إطارها ثم أطبقت أجفانها!

وتراقصت أشعة المصباح الذابل في الغرفة الخالية من الأثاث إلا من سرير محطم عليه جسدٌ محطم!

وهبت نسمةٌ عابرةٌ فأطفأت المصباحَ وعمَّ الظلام!

وخرج الرجلُ ناكسَ الرأس يتعثر في خطاه ليلقي إلى زوجته النبأ الفاجع. . .

وكانت زوجته جالسة إلى المرآة تتزين!. . . . . .

وعلى حين كانت الدار تموج بالأهل والجيران يتهيئون لتشييع الأم إلى مقرها، كان الفتى جالساً في ثلة من أصدقائه وصديقاته يحتفلون باليوم السعيد!

obeikan.com

من أدباء الجيل!

كانت أشعة المصباح ذابلة صفراء ترتعش لكل نسمة تهب؛ وكان الجو عاصفاً، والمطر يلطم زجاج النافذة فينفذ رشاشه من فروجها، ويسيل قطرات على الجدار؛ وفي زاوية من الغرفة كان الفتى النحيل جالساً إلى نضد صغير يكتب...

منذ ساعات، والفتى في مجلسه ذاك يستنزل الوحي ويؤلف أشتات المعاني، لا يكاد يحس شيئاً حوله، والناس نيام! يجب أن يفرغ من إعداد هذه الخطبة التي يكتبها قبل الصباح؛ أن هنالك من ينتظر.....

ودقت الساعة اثنتي عشرة دقة، فرفع الفتى رأسه عن أوراقه ووضع القلم وفي عينيه أثر الجهد والإعياء... وارتفق بذراعه على النضد الذي يتخذه خواناً بالنهار ومكتباً بالليل، فسمع له مثل صرير الباب تضربه الريح... ودار بعينيه في الغرفة التي تضم كل ما يملك من متاع، ينقل بصره بين البذلة المعلقة بالشجب، والطربوش الملقى على الوسادة، والفراش المشعث منذ غادره في الصباح الباكر؛ ثم زفر زفرة... وخرجت من بين الكتب المركومة إلى جانب الحائط دويبة صغيرة تلتمس طريقها إلى الباب في تثاقل وبطء... وارتمى إليها نظر الفتى،

فابتسم... ثم قلب شفته في رثاء: (آه، حتى أنت يا مسكينة... تسهرين الليل مثلي في البحث عن القوت!)

ثم عاد إلى مكتبه وأوراقه...

وفرغ الفتى من عمله، فأشعل آخر دخينة في علبته... ثم أخذ يقرأ لنفسه ما كتب...

وأشرق وجهه راضياً، كأنما مسحت على آلامه يد رحيمة؛ ثم هب واقفاً وعلى شفتيه ابتسامة الرضى والسلام، وبسط أوراقه أمام عينيه... وعاد يقرأ:

(أيها السادة!...)

وخيل إليه في موقفه ذاك، أنه هو ما هو بين الناس، في جمع حاشد تشرئب أعناقهم إليه، فلعب به الزهو واستخفته الكبرياء، واستمر يخطب...

(... شكراً لكم هذا التقدير الغالي... إن أمة تحتفي بأدبائها هذه الحفاوة العظيمة....)

وأحس شيئاً يخزه في صدره فلم يتم... (التقدير الغالي... والحفاوة العظيمة...) أين هو من هذه المعاني؟

إنه منذ سنوات وسنوات يجاهد جهاده للفن والأدب، وينشئ كل يوم في تاريخ الآداب فصلاً جديداً، وها هو ذا اليوم حيث بدأ منذ سنوات وسنوات: لا يذكره أحد، ولا يعترف له إنسان؛ ولم يجد عليه جهاد السنين شيئاً... ولكنه مع ذلك

مسؤول أن يعمل، وإن يدأب، لا يني ولا يستريح؛ لأنه يريد أن يعيش!

وغام وجهه بعد صفاء؛ وذبلت الابتسامة على شفتيه، وتخاذلت كبرياؤه، وعاد إلى نفسه يفكر فيما عليه من فرائض الحياة.

لقد أوشك الصبح أن يسفر، وإن عليه موعداً أن يغدو مبكراً على (الأديب الكبير فلان...) ليدفع إليه الخطبة التي أعدها وبذل فيها سواد ليله وعصارة قلبه، ويقبض ثمنها، شأنه معه منذ سنوات...!

وطوى الفتى أوراقه كأنما يلف ميتاً في أكفانه؛ ثم أطفأ المصباح وأوى إلى فراشه!

واستيقظ بعد ساعات، فلبس بذلته، ونفض الغبار عن طربوشه؛ ثم سك باب غرفته ومضى يهبط السلالم درجة درجة، وفي يمناه الخطبة التي أعدها ليلقيها الأديب الكبير... في حفلة تكريمه! يا للسخرية!

وسار على حيد الطريق ويسراه في جيبه تعبث بما فيه من قروش، وفي رأسه خواطر تصطرع وتموج...

أرأيت إلى الأب يمشي وحيداً في جنازة ولده العزيز ليشيعه إلى مثواه؟ كذلك كان يمشي هذا الفتى وفي يمناه أوراقه مطوية في غلافها!

وعاج على بائع الصحف فاشترى واحدة؛ فأخذ يقلب صفحاتها حتى انتهى إلى الموضوع الذي يبحث عنه، فمضى يقرؤه...

...لم يكن موضوعاً جديداً عليه، لقد قرأه من قبل مرات حتى ليعرف دلالة كل حرف فيه. أراه يقرأ الساعة من الصحيفة التي في يده أم يقرأ من غيب صدره؟... وانقبضت نفسه حين انتهى إلى الإمضاء؛ ثم ابتسم...!

ماذا عليه أن يبيع المجد لطلابه بالمال؟... أنه يعطيهم مما يملك لينتفع منهم بما لا يملك. وماذا يجدي عليه المجد والشهرة وذيوع الصيت وأنه لمحتاج إلى الرغيف؟

ليت شعري، أي الرجلين أكثر جدوى على صاحبه؟ ذلك الذي يعطي القرش أم هذا الذي يأخذه؟

وخيل إلى الفتى أنه عرف الجواب، فطاب نفسه وعاوده الشعور بالرضا والاطمئنان!

ونام الفتى في تلك الليلة ملء عينيه وملء بطنه... لا يعنيه من أمر الحياة شيء...!

وسهر (الأديب الكبير) ليلته يستظهر الخطبة المعدة ليلقيها مساء غد في حفلة تكريمه...!

وأشرق الصبح، فنهض الفتى من فراشه ولبس بذلته وخرج لبعض شأنه، وعاج على ندى في الطريق يتناول فطوره، فطاب له المجلس...

وجلس إلى جانب الباب يتبع عينيه كل غادية ورائحة في الطريق، وتسرحت خواطره فنوناً من مشهد قريب إلى معنى بعيد، وانفتل من دنياه يجري في عنان الأوهام... فما صحا من أحلامه إلا على صوت النادل يمد إليه يده بورقة الحساب، وعاد إلى الحقيقة، ولكن بعد مشوار طويل في وادي المنى...

ودفع ما عليه ونهض، ليعود إلى غرفته فيغلق بابها عليه ويجلس إلى مكتبه يستنزل الوحي ويؤلف أشتات المعنى، وانتهى مما كتب والشمس في صفرة الأصيل: فغادر غرفته عجلان ليشهد حفلة التكريم!

... وكانت الردهة الفسيحة ليس فيها موقع لقدم، وقد نصت المقاعد صفوفاً صفوفاً فما بينها فرجة تتسع لعابر؛ واختلطت أصوات المجتمعين فما يبين صوت من صوت، وسكنت الأصوات فجأة حين بدت طلعة الأديب الكبير، وتطاولت إليه الأعناق تنظر؛ ومضى الأديب الكبير في طريقه ثابت الخطو وهو يرفع يديه إلى رأسه، حتى انتهى إلى مقعده في صدر المكان والعيون ناظرة إليه...

ووجد الفتى مكاناً في أدنى الردهة إلى الباب؛ فجلس وإنه ليشعر مما به كأنه غريب في هذا المكان!

وتعاقب الخطباء خطيباً بعد خطيب وشاعراً بعد شاعر، يمدحون الأديب الكبير ويعددون أياديه، وهو مطرق الرأس من خجل، لا يزيد على أن يبتسم!

وخيل إلى الفتى في مجلسه البعيد من خياله أشياء؛ فكأنما هذا الاجتماع الحاشد، وهذا الثناء الرطب، من اجله هو وحده، وكأنه هو هو ولا أحد هناك، فأطرق رأسه من خجل كذلك، لا يزيد على أن يبتسم!

وماذا يضيره أن يجهل الناس اسمه ومكانه وأنهم ليعرفون من يكون بآثاره وأدبه؟ ماذا يضيره أن يكون كتابه في أيدي القراء بلا غلاف ولا عنوان...؟

ومضت ساعة ووقف الأديب الكبير ليؤدي واجبه لهؤلاء الذين اجتمعوا لتكريم أدبه والحفاوة به، وأخذ يقرأ من غيب صدره:

(أيها السادة!)

(... وأشكر لكم هذا التقدير الغالي... وإن أمة تحتفي هذه الحفاوة بالنابغين من أدبائها لحقيقة بالخلود...)

وقال الرجل الذي يجلس إلى جانب الفتى في الصف الأخير ونظر إليه: لله ما أحكم منطقه وأسد بيانه!

قال الفتى: شكراً!

وسمعها الرجل وابتسم؛ فما يملك أكثر من أن يبتسم، وأنه ليعرف أن مجالس الأدب هي أحفل المجالس بالمجانين.

واستمر الأديب الكبير يخطب:

(إني لمدين للأمة بما أبذل لها من أعصابي ومن دمي؛ شاكر لله ما وهب لي من قدرة تهيئني لأن أكون بهذا المحل الرفيع بين أبناء قومي...

(... إن الأدب الذي يسمو بضمير الأمة، ويشرع لها طريقاً إلى المجد والخلود...)

والتفت الفتى إلى جاره يقول: (لقد نسى فقرة طويلة... إنها كانت أجمل ما في خطبته!)

ونظر إليه جاره فلم يتمالك أن ضحك؛ فوضع راحته على فمه يكتم ضحكته أن تسمع؛ وتنبه الفتى بعد سهوة، فأحمر وجهه ثم أصفر؛ ثم نهض فغادر المكان...!

ونهض الفتى من فراشه مبكراً بعد ليلة ساهدة؛ فقصد إلى دار الأديب الكبير يهنئه على ما نال من إعجاب الناس وما ظفر به من التقدير والمكانة، ويستعينه على أمر...

وقرأ صحف الصباح في الطرق؛ فعرف ما فاته مما كان في الليل...

ودق الجرس فانفتح الباب، وقدم الفتى بطاقته إلى الخادم، فخلفه واقفاً بالباب ينتظر ودخل يستأذن سيده؛ ثم عاد إليه بعد لحظة يعتذر، لأن سيده نائم!

وأحمر وجهه من الغيظ ولبث واقفاً بالباب برهة، ثم مشى وفي نفسه ثورة تضطرم، ومضى على غير وجه!

وتذكر الفصل البديع الذي انتهى من كتابته أمس قبل أن يغادر غرفته إلى مكان الاحتفال؛ فأخرجه من جيبه ومشى يقرؤه...

لا، لا؛ لن يكون بعد اليوم ذيلاً لأحد يبيعه نفسه برغيف من الخبز؛ أنه ليعرف اليوم قدر نفسه أكثر مما عرف في يوم من الأيام؛ لقد قالها الناس أمس كلمة صريحة وعتها أذناه؛ أنه هو هو وإن جهل الناس اسمه ومكانه!

وسعى إلى إدارة الصحيفة التي نشر فيها أول ما نشر من منشآته منسوباً إلى الأديب الكبير؛ وأي الصحف أولى بتقدير أدبه والاعتراف بفضله غير الصحيفة التي عرف منها (الأديب الكبير) أول ما عرف، ثم كانت أول من دعا إلى تكريمه والحفاوة به؟... لهو هو وإن جهلت الصحيفة اسمه ومكانه!

واستأذن على المحرر ودخل، فدفع إليه الورقات التي في يده...

ونظر المحرر نظرة إلى وجهه هندامه، ثم أثبت وضع النظارة على عينيه واخذ يقرأ هذه الورقات، ولكن من آخرها؛ ثم دفعها إلى الفتى... وفي صوت متأنق سمعه الفتى يقول: (يا بني، إنها محاولة، وإني لأرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي نشر فيه ما تكتب، بعد أن تأخذ عدتك وتنضج...!)

وفتح الفتى فمه وهم أن يتكلم، ثم سكت، واتخذ طريقه إلى الباب في صمت...

ومن النافذة التي طالما سهر بجانبها الليالي إلى مكتبه يستنزل الوحي ويؤلف أشتات المعاني، وقف يطل على الناس ساخراً، ثم أخرج الورقات من جيبه فمزقها وأسلمها إلى الريح تنثرها على الرؤوس كسرب مذعور من الطير الأبيض!

... وحين نشرت الصحف أن الحكومة قد رصدت من مال الدولة بضعة آلاف لمعاونة الأديب الكبير فلان... على تنفيذ مشروعه الأدبي العظيم... كان الفتى جالساً يقرأ الجريدة في ظل شجرة على رأس الحقل، ويستريح برهة مما جهد في الحرث ولزراعة؛ وخار الثور المربوط إلى المحراث، كأنما يريد أن ينبه الفتى إلى أنه قد آن أوان العمل!

... ولكن الصحف لم تلبث أن عادت فنشرت في الغد، أن الأديب الكبير قد كتب إلى الحكومة يشكر ويعتذر؛ لأنه قد اعتزل الأدب فما له هفوة إليه بعد!

وأسـف النـاس إذ قـرءوا، ولكـن شخصـاً واحـداً كـان يعرف، وكان يبتسم!

obeikan.com

حلم شاعر

الليلة عيد مولده!

أولئك أصحابه وصواحبه قد أحاطوا به فرحين مهللين، يضيء البشر في قسماتهم، وترف على شفاههم بسمات الفرح والمسرة؛ قد تنادوا إلى موعدهم ودعوه معهم إلى ناديهم، ليحتفلوا بعيد مولده!

وإنه لجالس بينهم ولكنه ليس منهم؛ إنه هنا ولكنه هناك!

. . . وفي يده زهرة يعبث بها. . . وضمها بين راحتيه ومال عليها برأسه. ما به أن يشمها؛ فإن عطرها ليأرج حوله وينتشر، ولكنه ينظر ويفكر. . .

. . . وراحت أصابعه تنثرها ورقة تساقط عند قدميه وهو يعد، وعد ثلاثين ورقة، ثم تعرت الزهرة من أوراقها إلا عوداً أخضر ليس له عطر ولا رواء؛ وهمس الشاعر: هذه هي دنيانا. . . واختلجت شفتاه وأطرق؛ وعاد يعد الأوراق المنثورة تحت قدميه. . .

. . . ثلاثون ورقة!. . . ذلك كل تاريخ الوردة؛ فما هي بعد الثلاثين إلا عود ذابل متفتر وورقات منثورة على التراب، وكانت وردةً عطرة يعبق بأريجها الجو وتهفو إليها الزهرات الطيارة من

فـراش البسـتان. . . فمـاذا يكـون هـو بعـد الثلاثين وقـد غربـت شمسها منذ ساعات. . .؟

وعـاد ينظـر إلى أصحابه وصـواحبه، يبـادلهم تحيـة بتحيـة، وكلمـات بكلمـات؛ لا يكـاد يشـعر أن هـؤلاء جميعـاً قـد التقـوا على ميعـاد ليحتفلـوا بـه في عيـد مولـده؛ فـإن سـيلاً مـن الخواطر والذكريات يتدافع في رأسـه السـاعة، فما يكاد يرى أو يسـمع إلا نجـوى نفسـه وهمـس أمانيـه؛ وغامـت على عينيـه غائمـة، فشـطح إلى واد بعيـد. . . وإن أصحابه وصـواحبه مـن المـرح والبهجـة لا يكـادون يشـعرون أنهـم هنـا وأنـه هنـاك؛ ومـا اجتمعوا إلا حفاوة بعيد مولده. . .!

وأحـس الشـاعر إحسـاس الوحـدة، وإنـه لبين أصحابه وأصـفى النـاس لـه؛ فتـركهم لمـا هـم فيـه وتركـوه، وإن وجهـاً في وجه، وإن ابتسـامة تجاوب ابتسـامة، وإن كلمة تحِّيي وكلمة ترد.

وأنفـض السـامر ومضى كل لوجهـه، ومـد الشـاعر يـده يصافحهم ويشكر لهم؛ ثم تفرقت بهم السبل. . .

. . . ووجـد الشـاعر نفسـه وهـو يمشـي وحـده في جـنح الظـلام، وأحـس الوحـدة الرهيبـة التـي يعـيش فيهـا منـذ كان؛ فمضى يتحدث إلى نفسه وتحدثه، وخنقته العبرة فأرسلها، ثم تتابعت عيناه. وعـاد الزمان القهقري ينشـر على عينيـه ماضيه ويذكره أمانيه. . .

وقالت له نفسه: هذا سبيلك فامض فيه على هدىً وبصيرة، وانظر ماذا أعددت لغد؟

وقال لنفسه: وهل ترين الغد يا نفس إلا صورة من أمس الذي كان؟ وهل تريني في غد غير من أنا اليوم وغير من كنت في الماضي؟...

لقد تجاوز الثلاثين ولم يزل حيث كان يوم بدأ؛ فماذا يكون غير الذي كان؟

وأوى إلى فراشه وأطفأ المصباح، ليقضي ما بقي من الليل يراوح بين جنبيه في فراشه الوحدة لا يهدأ ولا يستقر!

كان شاعراً بروحه وفطرته قبل أن يكون شاعراً له لسان وبيان: نظر إلى الناس في دنياه فاستوعبهم بنظرة، ثم عاد ينظر إلى نفسه فلم يعرف أين هو من نفسه وأين هو من الناس؛ وشعر بالوحدة منذ شعر أنه يعيش في جماعة. وكان له خيال وفي نفسه أمل؛ فتوزعته دنياه ودنيا الناس؛ فلا هو عاش في دنيا الناس واحداً منهم ولا هو عاش في دنياه وحده!

وألحت عليه ضرورات الحياة، فأبت عليه فطرة الشاعر أن يلتمس بعض وسائل الناس؛ فعاش من ضروراته وفطرته بين قوتين تتجاذبانه، لا سبيل إلى الخلاص منهما معاً إلا أن يعيش روحاً بلا جسد أو جسداً بلا روح؛ وهيهات!

وفكر فيما خلق الله وفكر في نفسه؛ فكأن في كل ما يراه لساناً يحدثه، وفي كل ما يسمعه معنى يهتف به؛ وكأن في كل منظور حقيقة غير منظورة لا تتكشف إلا لعينيه ولا يسمع نجواها أحد غيره؛ فإن وراء الغمام طيوفاً تتخايل له في شكول وألوان، وإن في لمعان البرق ومضات من الإلهام، وإن في الصمت لكلاماً أبلغ من الكلام، وإن بين السماء والأرض لعوالم غير منظورة تفضي إليه بأسرارها!

وتكشفت له الدنيا ونضت أستارها؛ فألهمته أن يغني.

.

وفاض ما في جنانه على لسانه سحراً من النغم يعبر عن أخفى خفايا النفس وأعمق أسرار الحياة؛ ولكن ألحانه القدسية قد تلاشت أصداؤها في صخب الحياة وضجة الأحياء؛ فلم يستمع إليه أحد!

وضاق الشاعر بوحدته بين هذا الناس وضاقت به دنياه؛ فأعتزم الخلاص. . . ولكن روحاً لطيفاً أطل عليه من سماواته فثبت فؤاده. . .

وابتسمت له فأبتسم، وعادت إلى الحياة نضرتها في عينيه، ووجد أنساً من وحشته حين أيقن أنه ليس وحيداً في دنياه!

وعـاد يغني. . . ولكـن غنـاءه اليـوم لـيس لـه وحـده؛ إنـه لحن مؤلف من خفقات قلبين قد اجتمعا على أمل. . .

وغنى بهـا عـن النـاس، وغنيـت بـه؛ فمـا يهمـه اليـوم أن يسمع الناس ما يصدح به من أغاريد الحب أو يكون لها وحدها شدوه وغناؤه!!

أه. . . لشد ما تقسو عليه دنياه!

كـان ذلـك منـذ سـنين أمـا اليـوم فقـد عـادت تقاليـد الجماعة تضرب بينه وبينها بسور ليس له باب؛ وعاد إلى الحياة وحده، لا يدري من أمرها ولا تدري من أمره. . .

. . . وأشـرق الصـبح عليـه صـبيحة عيـد الميلاد، ومـازال يراوح بين جنيه في فراش الوحدة لم تغتمض عيناه!

ما هو؟ وأين هو؟ وما دنياه؟

أنـه لـيحس مـن حولـه فراغـاً هـائلاً لـيس لـه قـرار؛ وإن الوحـدة لتكتنفـه، فمـا يشـعر أن ثمـة أحـداً بجانبـه يفـزع إليـه ليـؤنس وحشـة قلبـه؛ وإنـه ليعـيش مـن زحمـة الحيـاة وصـخب الأحيـاء في ضـجة يمـوت فيهـا الـنغم ويتلاشـى الصـدى؛ ففيمـا العيش؟ وما جدواه؟ وإلى أي غاية يمضي؟

وعاد يلتمس الوسيلة إلى الخلاص!. . .

وقالت له نفسه: أتحسب يا صاحبي أنك قد فرغت من دنياك حين خلوت إلى نفسك؟ فما أنت بشاعر!. . . لئن كنت قد

عفت الحياة وكرهت المقام في دنياك لأمر من أمور دنياك - إن الحياة ما تزال تطالبك بحقها عليك؛ فإن أديته... وإلا، فلست من شعرائها، ولا كنت!...

... ما الشعر إلا رسالة الحياة إلى الأحياء تعبر عن أسرار الحياة ومعانيها؛ وما هو إلا قبس من نور السماء يتنزل على قلب بشر لتنير به السماء ما حوله من ظلمات البشرية؛ وما هو إلا إحساس زائد على إحساس الناس يرى مالا يرى ذو عين ويسمع ما لا سمع ذو أذن؛ وما هو إلا وحي يوحي من وراء الغيب إلى إنسان تكون فيه زيادة على الإنسانية؛ وما هو إلا إدراك كامل يكشف عن مظاهر الجمال في الكون ويهدي إلى الحق والخير

... أفتراك يا صاحبي قد بلغت رسالة الشعر حين حسبت أنك قد فرغت من دنياك، أم أنت...؟

وأطرق الشاعر برهة يفكر ثم نهض لأمره...

بلى، إن عليه رسالة يؤديها وواجباً ينهض له؛ فلا عليه من الناس حتى يبلغ، فإذا انتهى من أمره فإن نفسه له خالصة يمضي بها حيث يريد

وأمات في دخيلته دواعي النفس ونوازع الهوى ومضى لغايته...

وعـاد يغني... غيـر آمل ولا خـائف، ومـا بـه مـن شيء ضجر ولا ملالـة؛ وأنـس وسـمت روحـه في آفاقهـا إلى ظل عـرش الله، حـين قمـع شـهوات نفسـه ونـوازع هـواه وآثـر أن يكـون نـوراً يضيء للناس وهو يشتعل؛ فلقيت أغانيه من يسمع فيعي!

وأفـاق النـاس على لحـن علـويٍ سـاحر ينشـده شـاعر وهب نفسه للدعوة إلى الحق والفضيلة والجمال؛ ونظروا، فإذا هـو هـو، ولكنـه صـار شخصاً غيـر من كان، لا تتصباه المنى ولا يعبث به هواه، وليس له في الحياة إلا هدف واحد يسعى إليه..

وجاءه المجد حين لا حاجة إليه...

وأشـارت إليـه مـن النافـذة بنـان مخضـوبة وتقـول: إنـه لهَو! ولكنه لم ير، ولكنه لم يسمع...

وسعى ساعيها إليه يسأله: أئنك لأنت...؟

قال: نعم، قد كان ذلك يوماً!

وعلى بـاب الكوخ المنفـرد على حـدود العمـران، جلـس الشـاعر على الرمل مرتفقاً إلى صخرة ناتئة، يسـرح بصـره في الفضاء الممتد إلى ما لا يبلغ النظر، وفي نفسـه أنس، وفي قلبـه هدوء ورضاً واطمئنان، وعلى لسانه تسبيح وعبادة!

لقد كان في مجلسـه ذلك بحيث لا تراه عين ولا تسـمعه أذن، ولكنه لم يكن وحده، لأن الله معهّ!

واستيقظ الشاعر بعد غفوة، وابتسم...

لقد أدى رسالته، ولكنه لم يكن في أي أيامه أكثر حباً للحياة منه يومئذٍ!

لقد تحقق حلمه بعد لأيٍ ووجد تعبير رؤياه!

obeikan.com

حقيبة الذكريات

في حارة (قصر الشوق) من حيّ الجمالية بالقاهرة، وإلى الشمال الغربي من مسجد (أبي عبد الله الحسين) حيث لا تزال القاهرة التي بناها المعز لدين الله قائمة في هذه القباب والمآذن، وتلك الدُّروب والمسارب، وهذه الدُّور الرحيبة المتقادمة التي تفضي إليها من باب إلى باب إلى أبواب...

... هناك، حيث التاريخُ الغابر ما يزال حيّاً ناطقاً في كل ما تقع عليه العين من مشاهد وآثار وناس؛ كأنما اجتمع تاريخ مصر الإسلامية كله في زمان ومكان، فلا يزال النظر يتنقل من منظر إلى منظر يذكِّر بالماضي كعهده يوم كان، من جيل إلى جيل إلى أجيال...

... هناك، حيث لا تزال ترى وتنظر ألواناً من الناس في سمات وأزياء وملامح، كأنما تشهد بقايا من سلائل الفاطميين وأبناء المماليك وجند السلطان سليم...

... هناك في هذا الحي نشأ (توفيق)...

تراه، فلولا طربوشه الأحمر ولسانه العربي لحسبتَه واحداً من أولئك السياح الأجانب الذين يفدون إلى بلادنا كل شتاء للدرس أو الرياضة. أما أبوه فله في الحيّ جاه واعتبار، وإن له ميراثاً من تاريخ هذا الحي العريق يمتد إلى أجيال، منذ دخلت

مصر جيوش السلطان سليم. وأما أمه فنازحة من دمياط، فلعلها بقية من سلالة بني أيوب. وأما هو فإنه ابن أمه وأبيه...

ونشأ نشأة أهله على صلاح وتقوى ودين؛ لا يعرف له طريقاً إلا إلى المدرسة أو المسجد، فلم يبعثْ به الهوى مرة ولم يَغْترَّه الشباب...

وأتم في التعليم في مرحلتين، فأراد أبوه أن يلحقه بالجامعة، ولكن ميراثاً في دمه كان يزين له ركوب البحر فسافر إلى إنجلترا ليدرس فنون الملاحة ويتهيأ لما أراد...

وانتقل توفيق من جو إلى جو: من حي الجمالية في ظلال القباب والمساجد وأضرحة الأولياء؛ إلى دنيا الهوى ومسارح اللهو وملاعب الجمال... ورأى، وسمع، وعرف...

ونظرت إليه جارته الحسناء، فما كان إلا نظرة وجوابها حتى كانا ذراعاً إلى ذراع...

وعاد توفيق إلى غرفته في الفندق وقد أوشك الصبح، وإنه من صاحبته على ميعاد؛ وكأنما كان في حلم فاستيقظ؛ فلم يأو إلى فراشه إلا بعد ما أخرج دفتره ليكتب في مذكراته. إنها لحادثة جديرة بأن يذكرها في تاريخه - ثم أغمض عينيه ونام...

وعرف توفيق منذ اليوم أن في الحياة أشياء غير ما كان يعرف!.....

وكان في طريقه إلى صاحبته ذات مساء، حين اعترضت سبيله فتاة؛ ونظر ونظرت، ثم كان تاريخ، وذاق توفيق لوناً جديداً من ألوان الحب!

وعاد إلى غرفته ليكتب في مذكراته، وطوى صحيفة وبسط أخرى، وكتب...

وخلع توفيق وقاره وألقى بنفسه في تيار الحياة؛ وتتابعت حوادثه في فصول وأبواب، وامتلأت حقيبته صوراً وذكريات...

وتجرَّد توفيق من ماضيه، فلم يبق في ذكراه من صورة الأمس إلا رسوم حائلة يكاد يبليها النسيان؛ ولكن شيئين اثنين لم يغفلهما توفيق: دروس الملاحة التي هجر من أجلها وطنه وأهله ومذكراته التي يثبت فيها مغامراته في الحب كل ليلة قبل أن ينام!

وانتهى توفيق من دروسه؛ فالتحق بشركة كبيرة من شركات الملاحة الإنجليزية التي تجول في البحار بين سواحل القارات الخمس؛ وركب ظهر البحر يتنقل بين البلاد، وفي يده (حقيبة الذكريات) يثبت فيها فصلاً من مغامراته كلما هبط ميناء من الموانئ. لم ينس واجبه قط في ليلة من ليالي الأرض أو ليلة من ليالي الماء...

لكأنما كان يجوب البحار على هذه السابحة لغاية واحدة، هي أن يذوق الحب في كل ميناء تّرسي فيه السفينة فيكتب ويصف...!

وذاق الحب في كل ألوانه، إلا اللون الواحد الذي يكون معه الدمع!

لقد كان يخلع حبه دائماً في الظلام قبل أن يفارق الغرفةَ المسدلة الستائر ويغلق الباب وراءه؛ فإذا عاد إلى غرفته من الفندق أو من السفينة بسط أوراقه وكتب؛ وتنتهي قصة حب؛ فلا يبقى منها إلا سطور مكتوبة!

ومضى توفيق على وجهه، والشر يغري بالشر...!

واجتازت السفينة مضيق جبل طارق في طريقها إلى الشرق، وأسرَّ إليه صاحبه (ماجدو) حديثاً فابتسم؛ ومضت السفينة بهما تمخر عباب الماء، واجتازت الدردنيل إلى البحر الأسود، لترسى في ميناء (كوستازا) على ساحل رومانيا، بلاد الجمال والحب.

وهبط توفيق وصديقه إلى البر، وراحا يضربان في المدينة ليذوقا الحب... الحب الذي ينتهي في الظلام، في غرفة مسدلة الستائر مغلَّقة الأبواب!

وقال ماجدو: إن في هذا المتجر يا صديقي فتيات للحب... لقد أخبرني صديقٌ زار (كوستازا) من قبل...!

ودخـل الصـديقان المجـر وراحـا ينظـران، ووقـف (ماجدو) يتحدث إلى بائعة المناديل وذهب توفيق إلى جارتها؛ ونظر إليها ونظرت إليه، وتحدثت عينان إلى عينين؛ وقالت الفتاة بصوت مطرب: هل يريد سيدي...؟

ولكن توفيق لم يكن يريد شيئاً غيرها...

لقد ذاق توفيق من الحب ألواناً وفنوناً، ولكنه لم ير من قبل مثل هذا الفن وهذا الجمال!

لكأنما كان ينتقل في البحار من شرق الأرض إلى غربها ليدرك موعداً واعده القدر في هذا المكان!

وإن صوتها لينفذ في أعماقه وله رجع بعيد كأنما كانت تهتف به من وراء البحار: إلي يا حبيبي إلي فأني أنتظرك منذ أزمان!

وأحس لأول مرة أنه وأنها... وأحست، وتواعدا على اللقاء!

والتقيا على موعدهما، وجلسا يتحدثان، وقال وقالت، وعرفت أن صاحبها مصري، فصاحت فرحانة: مصري؟ ما أجمل هذا! إن بيننا نسباً يا صديقي. إن أبي من تركيا، أعني جدِّي. إنني لست رومانية خالصة، ومع ذلك...

وسكتت (مارتزا) فلم تتم. لقد رأت في عيني صاحبها نظرة زعمت أنها تفهم معناها.

وأحس توفيق إحساساً جديداً منذ الساعة. إنه ليشعر كأنما يتحدث إليه القدر بلسان هذه الفتاة حديثاً لا يكاد يعيه...

وتناول يدها بين راحتيه، ومال عليها فقبَّلها، واغرورقت عيناه!

لقد جلس توفيق مثل هذا المجلس من قبل مراتٍ ومرات؛ ولكنه لم يكن في مرة منها في مثل حاله الليلة.

هذه فتاة لم يعرفها إلا منذ ساعات؛ دعاها إلى خلوة للهو والشراب فما تأبَّتْ - ماله يُحس في مجلسها هذا الإحساسَ الغامض حتى لا يكاد ينظر إليها نظرةَ رجل إلى امرأة! وما باله يشعر في مجلسه منها كأنه قد ارتفع عن بشريته حتى ليستشعر الندم لأنه دعاها إلى هذا المجلس من مجالس اللهو الحرام!

وشعر كأن روحاً خفيّاً يهمس في نفسه، وشعاعاً لطيفاً من نور الله ينفذ إلى قلبه؛ فكأنما قام بينهما حجاب من الوهم يمنعه أن ينفذ إليها ويمنعها.

وأطاف به طائف فأطرق، ثم رفع إليها عينيه ونظر...

وامّحت فيه كلُّ معاني (الجنس) لتحل فيه معاني (الإنسان)...

وفاء إلى نفسه بعد برهة فسخر من نفسه، وراح يقاوم هذا الطارئ الجديد في قلبه ويسكب في كأسها وفي كأسه؛ وأخذا يشربان!... وانتصف الليل وصحبته الفتاة إلى غرفته... فإنها لتعرف أن عليها لصديقها حقاً ينبغي أن تتهيأ له؛ فما يَدْعوها مثُله من روَّاد البحار إلا لمثل ذلك...!

... ولكنه... ولكنه في تلك الليلة كان غير من كان، ونام ونامت كما يقتسم الأخَوان الفراش!...

ولما قام ليودِّعها في الصباح إلى الباب، كانت مطرقة برأسها إلى الأرض وفي عينيها دموع!

وتلاقيا من بعد مرات، ودَعَتْه إلى زيارة أهلها فلبَّى، وتوثقت بينهما عقدة الحب على طهر وعفاف!

وذاق توفيق لوناً من الحب لم ينعم بمثله فيما فات من أيامه!

وقال لها: مارتزا! سنفترق يا حبيبتي؛ وستبحر السفينة بعد أيام لتضرب في مجاهل البحار؛ فاذكريني، واكتبي إليَّ كلما تهيأت لك فرصة!

وتغرغرت عينا الفتاة وقالت: توفيق! بربك لا تذكر الفراق! خذني معك! إنني لا أطيق!

وفكر الفتى قليلاً، ثم ذهب إلى الرُّبان يرجوه أن يقبل مارتزا وصيفة في السفينة. ولكن السفينة لم تكن في حاجة إلى وصيفة على من فيها؛ فعاد توفيق إلى صاحبته ينوه بهمه!

وأبحرت السفينة بعد أيام، وراحت مارتزا تودّع صاحبها، وهي تتجلد؛ ووقفت على الرصيف تلِّوح بيدها ويجيبها؛ ثم صفرت السفينة، وراحت تشق الماء، وسقطت الفتاة بين يدي أمها في غشية!

وحملوها إلى دارها، وجاء الطبيب؛ ولكن مارتزا كانت من الصدمة التي نالتها بحيث لا يجدي عليها احتيال طبيب!

وجلست أمها بجانب فراشها تبكي، ووقف الطبيب جيران، ولم تفق مارتزا من غشيتها!

وراحت السفينة تشق البحر بحيزومها، وعلى ظهرها توفيق وخلَّفت على الشاطئ فتاة بين الحياة والموت!

ولكن السفينة لم تكد تمضي على وجهها، حتى جاءتها الأنباء بأن المجاز مغلق في طريقها، فعادت أدراجها إلى كوستازا، حتى يصدر إليها الأمر بالمسير

وأرست السفينة، فهبط توفيق مسرعاً إلى البر ليرى فتاته ويأنس بها ساعة، وهو لا يعرف من أمرها شيئاً

ودق الباب ودخل، وكانت تهذي باسمه، وفزع توفيق، وجرى إليها وهو يصيح: ماريتزا! ماريتزا!

وأفاقت ماريتزا بعد غشية يومين، وشفاها لقاءُ حبيبها حين عجز الطبيب.

وثابت إلى الفتاة قوتها رويداً رويداً، ولكنها لم تفارق فراشها ولم يفارقها توفيق. ومضت أيام، وصدر الأمر إلى السفينة باستئناف رحلتها. وخاف توفيق أن ينال الفتاة ما نالها أول مرة لو علمت أنه موشك أن يفارقها؛ فأسر الخبر إلى أمها لتحتال في أمرها. . .

ومضى توفيق ليؤدي واجبه في السفينة، وهو محزونٌ أَسوان وكان باقيا على إبحار السفينة ساعات حين جاءه الربان يسأله: (توفيق، إنك تعرف فتاة كانت تريد أن تعمل وصيفة في السفينة! فهل يمكن أن تدعوها الآن؟ إن إحدى وصيفاتنا مريضة وقد غادرت السفينة إلى المستشفى ونحن في حاجة إلى بديل!)

ولم يتلبث توفيق؛ فما هو إلا أن أسرع إلى صديقته يدعوها، وأبحرت السفينة وعلى ظهرها الحبيبان. . .

وكانت على رصيف الميناء امرأة عجوز تلوح بمنديلها!

توفيق وأخته، هكذا كان يعرفهما ركاب السفينة جميعاً: الملاحون والركاب.

ومضت السفينة بهما تشق البحار من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال، ينعمان بالحب وسعادة

اللقاء، لا يظنان أن سيفرق بينهما شئ. وتمازجت روحهما حتى ليس بينها سر، وسالمتهما الليالي... ومضت سنوات...

وكانا في أحد الموانئ حين جاءت الفتاة برقية بأن أمها تحتضر!.

وكان الفراق؛ وباعدت الحادثات بينهما، ولكنه لم ينس، ولكنها لم تنس؛ فإنه ليكتب إليها وإنها لتكتب إليه!

وفعل به الفراق ما فعل حتى لا قرار له؛ فليس له أمنية من بعد إلا أن يعود ما كان! وتصرمت السنون، والفتى في حنين دائم وشوق لا يُغْلَب!

وحنَّ توفيق إلى أهله، فآثر العمل في شركة مصر للملاحة ليكون جهاده لبلاده؛ ولم ينس (حقيبة الذكريات) فإنها لمعه أين يكون؛ يستروح منها نسمات الحب ويأنس إليها في ساعات الوحشة...

ومضت الباخرة (زمزم) تتهادى من ميناء السويس في طريقها إلى (جدة) في ديسمبر سنة ١٩٣٨ وعلى ظهرها الملاح (توفيق) ثم أرستْ، وركب الحجاج الفلك إلى رصيف ميناء جدة، ومعهم توفيق مُحْرِما بالحج

وطاف الحجيج بالبيت ملبين ضارعين، ووقف الفتى حيث بدأ الناس، لا يتقدم ولا يتأخر؛ وحضرته الذكرى فرأى كتابه منشوراً على عينيه بما فيه من خطايا وآثام؛ وهمَّ يرفع

رأسه، فما أطاق، كأنما يحمل أوزار السنين على كاهله؛ وتدَّنت عيناه بالدمع... وتذكر يوم كان... فتى يخطو إلى العشرين، في حارة (قصر الشوق) لا يحمل من همٍ وليس له ماض؛ فترامى على أستار الكعبة نادماً يستغفر، وانهملت دموعه على خديه..

وعادت (زمزم) تخطر على ثبج الماء، وعلى ظهرها ركابها مهللين داعين ترف على شفاههم بسمات الرضا والاطمئنان!

وعاد توفيق إلى غرفته من السفينة راضياً مبتسماً طاهر القلب كما كان يوم ركب السفينة أول مرة من ميناء الإسكندرية منذ تسع سنين ليتعلم الملاحة.

ونظر إلى متاعه فرأى... وكأنما برزت حقيبة الذكريات لعينيه أول ما نظر لترده إلى ذلك الماضي الذي رماه عن كتفيه منذ قريب!

ونازعته الذكرى فَخار عزمُه وأحس في نفسه الوَهن؛ واصطرعت في نفسه قوتان، فعاد ينظر إلى الحقيبة بين لهفة وندم وإشفاق، ثم دنا منها فتناولها ومشى بطيئاً ثقيل الخطو حتى بلغ ظهر السفينة... وطوَّح بها وهو يقول: (أيها الماضي الذي كان، اذهب إلى غير مَعَاد!)

... وفرغ صديقي من قصته؛ فما كان يبلغ نهايتها حتى اختلجت شفته وتندَّت عيناه بالدمع؛ ثم أردف:

يـا صـديقي! لقـد أذكرتَنـي مـا كنـت أريـد أن أنسـاه وحسبتُني قد فرغتُ من أمره منذ عام وبعض عام؛ فإني لأحسُّ السـاعةَ أن الجرح الـذي انـدمل قـد عـاد يَدْمَي!. . . لا لا، ولكنـه ماض قد انطوى وفرغتُ من أمره!

وصـمت سـاعة، وانطفـأ بريـق عينـه وأطـرق؛ ثـم عـاد فرفع رأسه وكأنه عائدٌ من سفر بعيد. . . ثم تناول قلمه وبسط بين يديه ورقة وراح يكتب إليها:

(عزيزتي مارتزا!

(. . . . . .)

obeikan.com

أمٌّ بلا ولد!

كانت خديجة في الخامسة والعشرين من عمرها، أو لعلها قد جاوزتها، وإن كانت تبدو لمن يراها أصغر من ذلك؛ فهي قد نالت شهادة (المعّلَمات) منذ سبع سنين؛ فكم كانت سنها يومئذ؟. . . على أن ذلك لم يكن يعنيها كثيراً، ولعلها لم تشغل نفسها يوماً بحساب عمرها؛ وماذا يجدي عليها ذلك وإنها لسعيدة بحياتها التي تحيا؛ فما لها فكر في غد ولا أمل يمتد إلى ما وراء غد!

وهل يشغل نفسه بحساب عمره وما مضى من أيامه - إلا ذو أمل يعيش به من يومه في غده، أو عاشق تتجاذبه لهفة الذكرى وخطرات المنى؟

منذ سبع سنين لم تغير خديجة شيئاً من نظام حياتها، فهي تغادر مدرستها كل يوم قبيل العصر بعد أن تودع تلميذاتها وتلاميذها، لتلقاهم في صبيحة اليوم التالي أشوق ما تكون أمٌ إلى بنيها وبناتها!

وفيما بين مسائها وصباحها لم يكن لها من عمل إلا أن تأوي إلى غرفتها تقرأ في كتاب، أو تشارك في عمل هين من أعمال البيت، أو تخرج لزيارة بعض جاراتها وصديقاتها منذ أيام الدراسة؛ فإذا بدا لها يوماً أن تخرج إلى بعض الحدائق العامة

للرياضة، أو تشاهد رواية جديدة في السينما، أو تقصد إلى بعض المشاهد التي يؤمها الناس للتفرج - فلابد لها يومئذ من رفيقات أو رفقاء من تلاميذها الصغار في روضة الأطفال يشاركونها في الرحلة والتفرج!

على أن هذا الحب العجيب الذي كانت تمنحه هؤلاء الصغار لم يكن بلا جزاء؛ فقد كان تلاميذها يبادلونها حباً يفوق ما يمنحون آباءهم وأمهاتهم اللائى ولدنهم!

وما كانت خديجة هي المعلمة الوحيدة في روضة الأطفال؛ فإن سبع معلمات يحملن معها أعباء العمل المدرسي؛ ولكنها هي وحدها - بهذه العواطف الأمومة الصادقة - كانت في عيون أطفالها هي المعلمة الوحيدة. لا جرم كانت خديجة بذلك أسعد زميلاتها وأكثرهن شعوراً بمسرات الحياة!

وغنيت خديجة بدنياها تلك عن المنى والأحلام؛ فما طوعت لنفسها أن تحلم أو تتمنى، ولا هجس في قلبها أن وراء هذه الحياة التي تنعم بهدوئها حياة تتخايل في أوهام كل فتاة في فنون وألوان!

وكان صباح، وجاءها ساعي البريد بخطاب...

ونظرت الفتاة في غلافه قبل أن تفضه فأطالت النظر، وكأنما أحست وراءه عينين تنظران إليها نظرة لم تفهم معناها ولا رأت مثلها لذي عينين؛ وقرأت على الغلاف: (الآنسة خديجة.

..) من يكون صاحب هذا الخط؟... وترددت برهة، ثم همت أن تفضه لتعرف ما فيه، ولكنها لم تفعل؛ لقد خيل إليها أن أربع عشرة عيناً تنظر إليها لتعرف قبلها ما في هذا الخطاب؛ إن زميلاتها في المدرسة على مقربة!... وتصنعت عدم المبالاة ووضعت الرسالة في حقيبتها وما قرأتها...

ولأول مرة أحست خديجة أنها في حاجة إلى أن تبتعد عن أطفالها لتخلو إلى نفسها برهة، وكما تحاول الأم أحياناً أن يبعد عنها أطفالها وهم أحب إلى قلبها لتخفى عنهم بعض أسرار الأمومة، كذلك فعلت خديجة...!

وأوت إلى ركن قصي تقرأ رسالتها.....

(عزيزتي خديجة!

(تُرى هل تذكرين؟ أو تعرفين؟...

(إن أياماً لا أتمتع فيها بمرآك، ليست من الحياة؛ إن هذا القدر الذي أبعدني عنك إلى حين، قد صدع صدعاً في أيامي!

(وفاجأني الفراق وأنا بين غفوة الأمل وصحوة الحلم؛ فلم أودعك يا عزيزتي، ولم أتحدث إليك، وسافرت وما تدرين..

(تُرَى بماذا تحدثك نفسك الآن يا عزيزتي؟... ليتني قريب منك، فأرى، وأسمع، وأعلم... بل إنني لأعلمُ علمَ قلبي وإن لم تحدثيني... وستعرفين عذري، وتغفرين لي... وسنلتقي

من بعد يا عزيزتي فأحدثك وتحدثيني؛ وأضحك وتضحكين معي حين نذكر هذا الحاضر بعد أن تطويه الأيام في مدرجة الماضي...

(لست أغفر لنفسي ولكنك ستغفرين لي؛ ويوم يجمعنا القدرُ الذي فرَّق بيننا يا عزيزتي، ويعود ما كان... وأراك... ويعود الربيع النضر طلقاً ضاحكا يتهلل... يومئذ أقول لك... لا؛ لستُ قائلها اليوم، ولن أقولها غداً، سأجعلها رسالة على فم طفل صغير يلثغ بها همساً في أذنك؛ فتضحكين، وأضحك، ويضحك الطفل الصغير كأمه وأبيه وإن لم يعرف لماذا يضحكان...!

(كيف أنت الآن يا عزيزتي؟ هل رضيتِ وسرّى عنك؛ إن كان كذلك فاكتبي إليَّ لتهدأ نفسي...

(مضى يومان وأنا في هذا المنأى البعيد كأنهما ليلٌ مطبق ليس وراءه نهار؛ فكيف تمضي الثلاثون؟

(ارقبي مطلع الهلال يا عزيزتي فإني أرقبه كل مساء لأعرف متى يحين اللقاء!

(وأترك قلبي لديك وديعة إلى معاد!)

محبك: كامل

كانت أناملها باردة كالثلج، وكانت شفتها تختلج، وكانت الصحيفة مبسوطة تحت عينيها ولا تكاد ترى؛ وأحست فجأة،

وقد بلغت آخر الرسالة، مثل إحساس من يهبط من علوٍ شاهق مغمض العينين إلى واد من أودية الجنة كان مخبوءاً عن عينيه فلما وطئته رجلاه فتّح فرأى...

وعادت تقرأ الرسالة ثانية وثالثة، وكل مرة تُجِدّ لها فكراً وتوقظ معنى؛ ثم طوت الكتاب برفق وأودعته غلافه، وراحت تفكر... وسألت نفسها: (تُرى من هو؟ وأين هو؟ ومتى رآني؟ وأين...؟)

وتوزعتها الصور والأوهام، وراحت تكدّ خاطرها، لتذكر وتعاقبت على مخيلتها صور ورسوم، ولكنها لم تعرف... أيّ حيرة؟ فتى يبلغ حبها من نفسه هذا المبلغ، فيكتم هواه عنها وعن الناس، ويقنع منها بالنظر على مبعدة وهي لا تدري؛ ويطوى جوانحه على ألم الحب، وبرجاء الوجد، وشقة النوى؛ وهي لا تعرف من أمره، ولا تسمع من خبره، ولا تحس وقع نظرته؛ حتى إذا أبعدته بعض شئون الحياة عن طريقها، وحيل بينه وبين أن يراها، غلبه الهوى على الكتمان فباح بحبه وأمانيه في رسالة.

أيُّ فتى ذاك؟ وأين مثله في الشباب؟ يا له من رجل!

وأحست الفتاة بعد فترة، أنها قد غابت كثيراً عن أطفالها؛ فأصلحت شأنها وعادت إليهم؛ ولكن خديجة التي فارقتهم غير خديجة التي عادت...

. . . ودق الجـرس، وقامـت خديجـة لتـودّع أطفالهـا وتمضي لشأنها، ولكن أين تذهب اليوم؟

وأخرجت الرسالة من حقيبتها وأخذت تقرأ. . .

(عزيزتي خديجة!)

إنه يعرف اسمها، على حين لم تكن تعرف اسمه ولا تحس وجودَه؛ بلى، وإنها إلى الساعةِ لا تعرف من اسمه إلا الكلمة الواحدة التي جعلها في ذيل كتابه؛ وكم مرة رآها، وأتبعها عينيه، واستمع إليها تحدّث صواحبها في الطريق، وهي لا تدري. .!

وعادت تقرأ:

(وفاجأني الفراقُ وأنا بين غفوة الأمل وصحوة الحلم؛ فلم أودّعك يا عزيزتي، ولم أتحدّث إليك. . . وسافرتُ وما تدرين. . .!)

وخفق قلبها، وأحست مثلَ إحساس المفارقِ حِيلَ بينه وبين الكلمة الأخيرة؛ وعضت على شفتها؛ واستمرت تقرأ وفي قلبها وجيب، وفي دمها سعار تلهب!

وجلست خديجة في الشرفة في المساء ترقب مطلع الهلال وتحصي ما بقى من ليالي البعاد!

تغيرت حياة خديجة بعد ذلك اليوم؛ فكأنما هي تعيش في دنيا غير الدنيا التي عرفتها منذ كانت؛ وتضاعف إحساسها

بالحياة مذ عرفت أن وراء اليوم غداً، ورأت في عيون أولئك الصغار الذين تعيش معهم نصف حياتها - معاني جديدة لم ترها في عيونهم من قبل؛ إذ كملت في نفسها معاني الأمومة حين بزغ في قلبها الحب. وعمر ليلها بالأحلام!...

ولمحت طفلاً يهمس في أذن رفيقه؛ فاشتاقت أن تسمع رسالة على فم طفل صغير يلثغ بها همساً في أذنها فتضحك ويضحك شخص ثان...!

ووسع خيالها ما لم يكن يسع!

وتعاقبت الأيام، والأحلام تطاولها وتمد لها...

ولما خلت إلى نفسها في غرفتها بعد أسبوعين من تلك الرسالة، اعترفت لنفسها بصوت مسموع أنها تحبه، وأنها تكاد تعرفه لو رأته... بل إنها لتعرفه يقيناً لا شبهة فيه... هكذا زعمت وهي خالية إلى نفسها تحدثها!

وارتسمت في خيالها صورة كاملة للرجل الذي جاءتها رسالته ولم تره قط، ورسمت لنفسها صورة أخرى من خيالها يوم تراه فتعاتبه ثم تصفح عنه!

وبقي يومان على مطلع الهلال.....

وكانت واقفة في الشرفة تستروح رَوْحَ الربيع، حين سمعت رنين الجرس... وكن ثلاثاً من صديقاتها؛ وجلسن

وجلستْ معهن في غرفة الاستقبال. ومضى الحديث يتنقل من فن إلى فن إلى فنون. . .

وقالت واحدة لجارتها: (متى زفاف أخيك؟)

قالت: (لقد أذكرتني أمراً. . . فقد أرسل أخي رسالة إلى خطيبته غداة سفره فلم تجبه؛ فغضب وكتب إليَّ يشكوها؛ وذهبتُ أزورها أمس فإذا هي غضبانة كذلك، تشكو إلى أن أخي لم يكتب لها منذ سفره. . . أرأيت. . .؟)

واعتدلت خديجة في مجلسها وقالت: (عجيبة! تقولين إنه كتب إليها فلم ترد؛ ففيم غضبها؟)

قالت: (هنا المشكلة؛ فإن رسالة كامل لم تبلغها!)

واختلجت خديجة، وهجس في نفسها هاجس، وأردفتْ صديقتها: (وبذلك كتبت إلى أخي ليعرف الحقيقة!)

واختلجت خديجة ثانية وقالت: (أتعنين. . .؟)

قالت الفتاة: (أعني أن رسالته لم تصل إلى خديجة. .!).

ووضحت الحقيقة كاملة لعيني الفتاة، وعرفتْ، واستيقظت من الحلم الرائع الذي عاشت منه عُمراً سعيداً في أيام. . .

ونهضت متثاقلة إلى غرفتها لتفتح حقيبتها فتعود بالرسالة التي ضلت طريقها إلى صاحبتها لتضل هي بها. . . ثم

دفعتها إلى صديقتها وهي تتمتم معتذرة... وتهاوت على مقعدها خائرة!

... وصفا ما بين الحبيبين وفاء قلباهما إلى الرضا، وتحطم قلب ثالث...

ولما بصرتْ بهما خديجة بعد أيام يمشيان ذراعاً إلى ذراع، أتبعتهما عينيها في ألم ولهفة، ثم دارت على عقبيها، ورجعت من حيث أتت

وعادت إلى أطفالها الذين كانوا، تلتمس بينهم العزاء والسلوى؛ فما وجدتْ أطفالها ولكن أطفاَل الناس!

واستنجدت أمومتها، فإذا أمومتها التي كانت عدتها من قبل في تأليف هؤلاء الصغار - هي أمومة الأثِر الَغيران الذي يتشهى ولا يجد، ويرجو ولا يجد سبيلاً إلى تحقيق الرجاء!

ونظرت، فإذا طفلٌ يهمس في أذن رفيقه، فابتسمت، ثم قطبت، ثم مدت يدها إليهما بالعصا!

وهم طفل أن يناديها، فأخطأ النداء ونطق على عادته: أمي!

فلوت وجهها لتخفي عن أطفالها دمعة!

وأحس الصغار إحساس الطفولة الملهَمة فداروا بها يسألونها عما بها محزونين وفي كل عين دمعة!

ونظـرت ثانيــة، فابتســمت وسُــرَى عنهــا؛ ثــم ضــمت أطفالها إلى صدرها وهي تتمتم:

(لا عَليَّ يا أحبّائي ما دمتم معي! أنتم بني وبناتي، وأنا لكم أم، أم بلا ولد!)

obeikan.com

الدرس الأول

(هل كانات (قدرية) في أوّليَّتها تتوقع هذه الغايةِ التي انتهى إليها أمرُها)

هكذا سألني صديقي وهو يحدثني حديثها:

كانت تجلس في الصف الأخير من حجرة الدراسة، فقد كانت أطول قامة وأبعد نظراً؛ فما يشق عليها ولا يعنيها أن تجلس في الصف الأول أو في الصف الأخير؛ على أنها كانت أسبقَ التلميذات جواباً عند الاختبار، وأكثرهن عناية بالعمل المدرسي؛ فلا جَرمَ كانت بذلك أدنى منزلة إلى قلوب معلميها ومعلماتها. وكانت على إرثٍ من الأدب والفضيلة، يبدو في طرْف غضيض، وصوت خفيض، ولسان عَذْب التحية عف الخصام؛ وكانت إلى كل ذلك مليحة رشيقة، مقبلة ومُدْبرة!... وإني لأعجب لنفسي كيف لم أتبيَّن ما فيها من رشاقة وخفة إلا في تلك الليلة التي كانت... حين بدأت حوادث هذه القصة؟... على أن المعلم في مدارس البنات، قلّما يُعنى بالنظر إلى وجوه تلميذاته، ولعله لو سئُل الرأيَ في تفضيل واحدة على واحدة من بناته في هذا الباب، لأخطأ الرأي والنظر، ولكانت أَدَمَّ الدميمات هي عنده الجميلة التي لا تباريها واحدة ولا تقاربها؛ فإن طول العشرة ودوام المخالطة خليقٌ بأن يلوِّن رأيه بلون

غير اللون الذي ينظر به كل رجل إلى كل امرأة؛ ومن ذلك لم يهجس في نفسي يوماً أن فلانة من تلميذاتي أجملُ أو أَدَمُّ من فلانة؛ وكذلك لم أكتشف ما كان في (قدرية) من جمال وفتنة إلا في تلك الليلة وإنها لتلميذتي منذ ثلاث سنين!

كان ذلك في يوم من أيام الربيع، وقد تبرَّجتْ الدنيا بزينتها وأخذتْ زخرفَها ونَضَت الكائناتُ عن سرَّ الإبداع العبقري الذي أودعه فيها الصانع الأعظمّ!

وكان العام الدراسي في أخرياته، وقد فرغ المعلَّمون أو كادوا مما عليهم من فرائض العلم، وتأهب التلميذات لواجبهن استعداداً ليوم قريب...

ورأت المدرسةُ أن تجري على تقاليدها احتفالاً بانتهاء عام؛ على أنها رأتْ أن يكون في حفلتها هذه السنةَ شيءٌ جديد، محاكاة لمدارس أخرى، ومساهمة في بعض أعمال البر؛ فاعتزمت أن يكون احتفالها في مسرح كبير مشهور، يُدعَى إليه طائفةٌ من أهل البذْل والمعروف، لتستعين المدرسة بما تجمع منهم على البر بطائفة من الفقراء...

هي سنَّة جديدة سنها بعض القائمين على شئون التعليم فَجَرَت قاعدة؛ فلِمَ نتخلَّف نحن وقد سبقتْ إلى هذه السنة الجديدة مدارس؟

وأعدّت المدرسة برنامجاً حافلاً، فيه تمثيل، ورقص، وموسيقى؛ وما بّدٌ أن تجتمع هذه الألوانُ الثلاثة في كل حفلٍ مدرسي يراد منه أن يغل إيراداً يعين على بعض أعمال البر... وإلا فماذا تقدَّم المدرسة من وسائل التسلية ثمناً لما تطلب من أهل البذل والمعروف!

وقالت معلَّمةٌ لأخرى: ينبغي أن تكون حفلتنا...

فقاطعتها الثانية: نعم، وستكون أفخمَ ما أُقيم من حفلات المدارس في هذا الموسم...!

واختيرت الرواية، واستؤجِر المسرح الكبير، ودُعي فنانٌ كبير من أهل الكفاية... ليدرَّب التلميذات على اصطناع شخصيات الرواية، كل واحدة بدورها، راقصة أو ممثلة!

وطاف المدَّرب بالتلميذات في صفوفهن يختار منهن ذواتِ الوجوه والأجسام... الفنية!

واختار (قدرية) لدور ذي خطر...

وتأبَّت الفتاةُ بما في طبيعتها من الحياء وما في دمها من إرث أجدادها؛ وعجب البناتُ أن تأبى قدريةُ وإن كل واحدة منهن لتتمنى؛ واستمعت قدرية إلى أحاديث البنات صامتة، ثم... ثم قبلت فخوراً مزهوة، وغلبتها غريزة الأنثى الغيور على ما في دمها من إرث الآباء والأجداد!

ووقف المَدرَّب يلقِّنها ويستمع إليها، ووقفت هي مصغية تستمع إليه وتحاكيه، تجهر بصوتها حيناً وحيناً تخافت به؛ وعرفت من مخارج الصوت ما لم تكن تعرف، ولانت أعطافها بعد خشونة ويبس، وأحسنتْ أن تدورَ على عقبها، ثم تنثني وتنهض، وأجادت تمثيل اللفتة المتكبرة، والنظرة ألعابرة، والرَّنوة الآسرة ثم تبكي وتضحك في وقت معاً.....

وقال المدرب الفنان: يا لها من فتاة! إنها لفنانة موهوبة!

وأطبقت الفتاة جفنيها في حياء وهي تشكر له، فبدت في كلمتها وحركتها أبرع فناً مما ظن مدربُها...!

ولم يُمانع أبوها وأمها أن تكون ابنتهما راقصة ممثلة ساعة في ليلة من ليالي البر؛ وأين يبدو لهما وجه الاعتراض والمدرسة هي التي اختارتها لذاك؛ وإن المدرسة لأعرف منهما بما ينبغي وما لا ينبغي؛ وإن عليها وحدها أن تختار لتلميذاتها من وسائل الرياضة والتثقيف ما يؤهلهن للحياة...!

وجاءت الليلة الموعودة بعد تدريب طويل وإعداد شاق.. وكان على أبواب المسرح الكبير معلمون ومعلمات لاستقبال المدعوَّين، وغص البهو والشرفات بالآباء والأمهات، والأصدقاء والصديقات، و... والمربين والمربيات...

وراحت طائفة من التلميذات تجوس خلال الصفوف في ثياب بديعة ومظهر فاته، يبعن الزهر والحلوى مما صنعت أيديهن من قبلُ استعداداً لهذا اليوم ومساهمة في أعمال البر..

... وكانت (قدرية) خلف الستارة بين أيدي المواشط يهيئنها للظهور، وأمامها مرآة كبيرة تريها من نفسها ما لم تكن ترى أو تعرف، وابتسمتْ ابتسامة الإعجاب والرضا حين رأتْ وعرفت...!

وخرجتْ إلى المسرح مجلوة ملونة كما لم تبد في يوم من أيامها، وانسكبت عليها الأشعة من أربع جوانب المسرح تشبُّ لونها وتزيدها ملاحة وفتنة، ووقفت متأهبَّة...

ورن الجرس، ثم ارتفعت الستارة، وضج المسرح بالتصفيق فانحنت في رشاقة وخفة وهي تكشف عن ساق ممتلئة مصقولة كأنما يجري فيها شعاع الشمس، ونثرت ابتساماتها يمنة ويسرة ترد تحية بتحية...

ولم يكفّ التصفيق حتى ارتفع صوتها يغني... واستدار بها البنات يرقصن ويغنين...

وغنّتْ ورقصت، وضحكت وبكت، وتأمَّرتْ ثم زلّت، واستعطفتْ ثم دلَّتْ، ووعدتْ ثم تأبَّتْ، ومنعتْ ثم نوَّلت، وقالت عيناها... وقالت عيونُ الناس...

وكأني لم أر قدرية قبل تلك الليلة؛... لقد بدا لي من جمالها وخفتها ما لم يكن لي به عهد من قبل؛ أهذه هي...؟

ولما أسدِلت الستارة في الخاتمة، كان تحت قدميها أكداس من الزهر؛ وفي أذنيها أنغام من هتاف الإعجاب؛ ولكن قلبها كان أحفلَ بمعانيه...!

وحين لقيها أبوها بعد، كانت في عينيه دموع، وطبع على جبينها قبلة... وأقلّتْها السيارة بين أمها وأبيها إلى البيت وهي صامتة، لأن معاني ذات خطرٍ كانت تُطيف برأسها...

ونامت تلك الليلة بين هتاف وتصفيق وأكداس من الزهر: لقد كانت عيناها مغمضتين ولكن قلبها يقظان؛ وتمثل لها في أحلامها كلُّ ما رأت وسمعَت وشعرتْ، وراحت أحلامها تنسج لها أمانيها... وتلقَّت الدرسَ الأول في تلك الليلة، فنسيت به كل ما تعلمت من دروس!

لقد ذاقتْ قدريةُ من اللذة الفنية ليلتئذٍ ما لم تذق طوال سنيها التي عاشت، فشاقها أن تستزيد...

ولما عادت إلى المدرسة بعد يومين، وسمعتْ ثناءَ معلّميها ومعلماتها، أجدَّ لها ما سمعتْ معاني أحست في أعماقها صداها ووجدت فيها غذاءَ لأمانيها...

... وتناولت (المجلةَ) التي تعودتْ أن تقرأها في كل أسبوع، فراحت تعبر صفحاتها معُجلة حتى انتهت إلى صفحة

(الفن) فتلبثتْ، وأخذت تنظر إلى صور الراقصات ونجوم المسرح معجبة متمنية... وفي أذنها صدًى بعيد من هتاف النظَّارة وتصفيق المتفرجين...!

ولما حان عيد مولدها وأرادت أن تتصوَّر - على عادتها في كل سنة - لم يحلُ لها إلا وضعٌ واحد تبدو فيه صورتهُا، فلبستْ ثوبها الذي كانت ترتديه ليلتئذ ووقفت بعضَ مواقفها واستحضرتْ صورةَ ما كان... فانطبعت في الورقة صورةٌ من مشاهد ذلك الماضي، وتمثلتْ في نظرة عينيها تمامُ صورته!

ووقفتْ ذات مساء على باب مسرح كبير من مسارح اللهو تجيل عينيها في إطار كبير يضم شتيتاً من صور الراقصات وربات الفن، وطالت وقفتها؛ ثم انصرفت؛ وفي الليلة التالية كانت جالسة في الصف الأول من بهو المسرح تشهد التمثيل وحدها، ليس معها أحد من ذويها؛ واستطاعت في ختام الليلة أن يكون لها رأي فيما شهدت من ألوان الفن وفي عيوب الممثلين وغلط الراقصات...!

وفي الصباح كانت جالسة إلى بعض زميلاتها في حوش المدرسة تحدثهن حديثاً طويلاً عن عيوب الفن المصري في الرقص والتمثيل والغناء، وتشخّص العلة وتصف الدواء؛ وأمَّن صديقاتها على ما قالت؛ فما تشك واحدة منهن في أن من حق قدرية أن يكون لها رأي في الرقص والتمثيل والغناء؛ وإنهن

ليسمعن من حديثها كل يوم ما يشهد بكفايتها وسعة معارفها في تلك الفنون...!

وتلقت قدرية بعد الدرس الأول دروساً كثيرة، في المسرح والسيما، والصحف، والكتب؛ وما نسيت مع كل أولئك شيئاً مما رأت في تلك الليلة التي كانت... لقد استقرت في أعماقها أصداء الهتاف والتصفيق الذي سمعت ليلتئذ... ورنين كلمات الإعجاب والرضا التي وعتْها أذناها، وصورتها بين الأشعة الملونة تنسكب عليها من جوانب المسرح وتحت قدميها أكداس الزهر... وبقي كل أولئك في نفسها مشهداً حياً كأنها ما تزال بين أشعته وألوانه، فإنها لتجد لتذكُّره لذة فنية تحبب إليها حياتها وتجدد لها في كل يوم أمانيها...

وانتهى عهدي بقدرية وانتهى عهدها بي؛ فقد أتمت دروسها بالمدرسة ومضت لشأنها؛ وتصرمت سنون... ونسيت أمرها وما كان...

... وفي ليلة من ليالي الصيف الماضي، دعوت أهلي إلى سهرة في بعض ملاهي الإسكندرية؛ قصدَ التسلية والرياضة. ووقفتُ بباب الملهى العائم بين الأمواج المصطخبة، أقرأ البرنامج المنشور على الباب وأشاهد الصور؛ ورأيت صورة، فهجس في نفسي هاجس لم يلبث أن تلاشى...

ودخلنا، واتخذنا مقاعدنا على مقربة من المسرح...
ومضت لحظات، ثم رن الجرس ورفعت الستارة؛ وتتابعت المشاهد فنوناً توقظ الفكر وتجلو صدأ النفس وتُسري عن الهموم؛ وفجأة برز أمامي مشهد رائع... يا لله...! من كان يظن.؟ هذه تلميذتي قدرية!

وبدت لي في مثل هيئتها التي رأيتُ أول مرة على المسرح الكبير في القاهرة منذ سنوات...

ثوب منفوش، كأنما اجتمعت أجزاؤه من أوراق الزهر، يكشف عن ساق ممتلئة مصقولة، كأنما يجري فيها شعاع الشمس، وانحنت في رشاقة وخفة، وهي تنثر ابتساماتها يمنة ويسرة، ترد تحية بتحية، والمسرح يضج بالتصفيق والهتاف باسمها الجديد الذي سمعتُه لأول مرة في تلك الليلة...

وغنت ورقصت، وضحكت وبكت، وتأمرت ثم ذلت، واستعطفت ثم دلت، ووعدت ثم تأبت، ومنعت ثم نولت...

وقالت عيناها... وقالت عيون الناس... وقالت لي نفسي...

وانتثرت أكداس الزهر على قدميها، وأسدلت الستارة .!

ليت شعري، هل كانت قدرية في أوّليتها تتوقع هذه الغاية التي انتهى إليها أمرُها؟

وهل كانت خواطرها تخيَّل لها هذا المصير الذي بلغته، يوم كانت تجلس مجلسها من الصف الأخير في حجرة الدراسة؟

وهل... وهل عَرف من عَرفَ: كم بين الدرس الأول والدرس الأخير... وأين ما بدأ مما انتهى...؟

وانفض السامر، وتهيأ أهلي للانصراف وما زلت في مجلسي أفكر، ثم نهضت؛ فإني لألتمس طريقي في الزحام على الباب إذ حانت مني التفاتة فرأيت؛ فتنحيت عن طريقي، وقلت للتي بجانبي: تفضلي! وكانت سيدة ورجلها وبينهما طفل؛ أما السيدة فأعرفها؛ فما تخفى عليَّ ملامح تلميذة من تلميذاتي مهما باعد بيِننا الزمان؛ وأما الرجل فزوجها؛ هكذا يعرف كل من يراه ويراها؛ وأما الطفل...

... هذه فتاة أخرى من تلميذاتي تبرز لعينيَّ فجأة بعد غياب سنين... هذه واحدة و (تلك) واحدة...

ليت (تلك) التي توارت خلف الستارة منذ قريب قد رأت ما رأيتُ لعلها تعلم ماذا باعت وما اشترتْ!

وشيعتُ (الأسرة السعيدة) بعينيّ ثم ارتد نظري إلى الوراء لأشيِّع الأخرى...

obeikan.com

وكأنما اجتمعت لي هاتان الصورتان في زمان ومكان ليشغلني أمرهما من بعدُ ما يشغلني، فلا أزال أسأل نفسي كلما حضرتْني الذكرى: أيهما خير...؟

obeikan.com

عيد الربيع

منذ عام لم تكن (نُضار) في مثل حالها اليوم... شتان بين ما كانت وما صارت!

هاهي ذي تخرج اليوم من محبسها الذي اعتزلت فيه الناس أشهراً لا تراهم ولا يرونها إلا كما ينظر العابر العجلان إلى تمثال قائم في عرض الطريق!

لم يكن ثمة ما يربطها بالناس بعد ما مات أبوها وهجرها خطيبها؛ فما شأنها وشأن الناس وما ترجو منهم وما يرجون؟

لقد عرفت من طباع الناس وهي معتزلة بعيدة أكثر مما كانت تعرف وهي تخالطهم وتعيش بينهم؛ وكذلك لا تتكشف حقائق الأشياء لمن يراها إلا على مبعدة!

منذ عام مات أبوها، وما كان لها في الحياة غير أبيها وغير خطيبها (رشيد)، وكانت تعيش من بيت أبيها في نعمة سابغة وظل وارف؛ ولم يكن لأبيها - منذ ماتت زوجهُ - غاية يسعى لها غير إسعاد ابنته؛ فَقَصر عليها عواطف قلبه ونوازع وجدانه وعاش لها، لا يرى لنفسه حقاً في متاع من متاع الرجال ما دامت ابنته سعيدة!

وكان لأبيها وظيفة ذات أبهة ومظهر، وكان لها جمال يفتن ويسحر؛ فتهافت الشبان على التماس رضاها والحظوة عندها، ولكن فتى واحداً هو الذي استطاع أن يحملها على الإذعان والرضا؛ وعرفها رشيد وعرفته، وعرفه أبوها، وتواعدا على ميعاد تنتقل فيه (نضار) من بيت أبيها إلى بيت رشيد!

. . . وعاشت حيناً سعيدة بأحلامها، لا يشغلها همٌّ من هم الحياة واستيقظت فجأة من أحلامها حين وجدت أباها مُسَجًّى في فراشه والطبيب بجانب سريره ناكس الرأس أسوان؛ ورأت في عيون الرجال من عُوَّاد أبيها دموعاً تترقرق فصرخت في لهفة: أبي. . .! وتلاشى الصدى ولم تسمع جواب أبيها. . . ودنا منها خطيبها يواسيها وفي صوته نبرة حزن، ولمعت دمعة بين أهدابه فأطبق جفنيه ولوى وجهه. . .

وخرج أبوها من الدار إلى غير مَعاد، وخرج خطيبها يشيع الجنازة فلم يعد، ولبثت الفتاة وحدها تنتظر. . .

وخرس جرس الباب فما عاد يستأذن عليها أحد. . . وما عادت تسمع خفق أقدام أبيها عائداً من الديوان بعد الظهر، ولا صوت نداء خطيبها قادماً لزيارتها في المساء؛ أما أبوها فإنها تعلم أين ذهب، وأما خطيبها. . .

بلى لقد عرف رشيد من شئون صاحبته ما لم يكن يعرف. . فاتخذ طريقاً غير الطريق التي كان يسلكها كل يوم،

وماذا يحمله على الزواج من فتاة ليس لها جاه من أهل ولا غنى من مال، وهو لو شاء لوجد عند غيرها الجاه والمال والسعادة. . . هكذا قالت له نفسه، فمضى وخلّفها. . .!

لقد كان أبوها هو كل ما تملك من غنى وجاه، وقد مات أبوها، فماذا بقي؟

ومضى شهر، وراحت نضار تقبض (المعاش) الشهري الذي فرضته لها الحكومة بعد موت أبيها. . . وعادت وفي يدها ثلاثة جنيهات. . . ذلك كل ثروتها، وكل العوض من أبيها الذي مات!

وفي اليوم التالي كانت عربة نقل كبيرة تحمل متاعها من البيت الذي عاشت فيه هي وأبوها ما عاشت. . . إلى غرفة مفردة على سطح بيت كبير من بيوت الحي؛ وكانت الخادمة تحمل صرة ثيابها ذاهبة. . .

وتغيرت منذ اليوم عيشة نضار، وانقادت صاغرة لما فرضت عليها الحياة!

ولزمت غرفتها على السطح، لا تفارقها إلا لحاجة، واعتزلت الناس لا تراهم ولا يرونها إلا كما ينظر العابر العجلان إلى تمثال قائم في عرض الطريق!

ومضى عام. . . وهاهي ذي اليوم تفارق محبسها لغير حاجة، تلتمس جديداً في حياتها المملولة الجافة التي تحياها

منذ مات أبوها... اليوم عيد الربيع... وقد خرج الناس من بيوتهم جماعات مبكرين إلى شاطئ النيل، وإلى حدائق الجزيرة ورياض الجيزة والقناطر الخيرية، يتملون جمال الحياة ويتمتعون بما أحل الله وما حرم من طيبات وخبائث...

وذكرت نضار ما كان من ماضيها... مَن ذا يراها في مجلسها ذاك على المقعد الخشبي في شارع (مسبيرو) وعليها ذلك الثوب الأسود الحائل، وفي عينها تلك النظرة الساهمة، وفي وجنتيها هذا الشحوب... مَن ذا يراها في مجلسها ذلك فيعرفها ويذكر ما كانت...؟

لقد آثرت ذلك المكان القصي الذي لا يطرقه أحد ممن تعرف من سكان الحي، لتكون بنجوة من عيون الفضوليين؛ أفكانت تحسب أن أحداً من أهل الحي يعرفها حين يراها، أو يذكرها؟... ولكن فيها بقية من حسن الظن بالناس!

ومرت بها مواكب الأطفال في ثيابهم وزينتهم، يحملون في أيديهم طاقات الزهر، وينفح من أعطافهم عطر الربيع وريحانه؛ وتتابعت أسراب الفتيات في غلائلهن الموشاة وأزيائهن الفاتنة يتمايلن ضاحكات عابثات عبث الصبى والدلال؛ ومضت طائفة من الفتيان في آثارهن يغنون ويتطارحون أناشيد الهوى والشباب والأمل المنشود؛ وكان على الشاطئ فتيان يقرعان كأساً بكأس؛ وعلى المقعد القريب فتى وفتاة

يتناجيان في همس؛ ومرت سيارة تتهادى وفيها اثنان ينشئان قصة حب...

ونضار جالسة على مقعدها وحدها، تسمع وترى وتذكر صوراً من ماضيها، وذكرت فتاها الذي كان، وذكرت أباها...

في مثل هذا اليوم... منذ عام... كانت وكان... وعادت إلى ماضيها، واستغرقت في حلم طويل...

ومر بها فتى، وتبادلا نظرتين، وأطرقت نضار من حياء وعادت إلى ذكريات ماضيها، وخطا الفتى إليها خطوة، وكانت على شفتيه ابتسامة... وفي عينيه نظرة تعبر عن معنى... وقال لها: أنت وحدك وأنا وحدي!...

وتضرمت وجنتاها حياءً وغضباً وسكتت؛ وعاد الفتى يتم حديثه... ونظرت إليه ثانية وهمت أن تتكلم، ثم أمسكت.. فليقل ما يقول ثم يمضي لشأنه؛ ليس ينبغي لمثلها أن ترد على مثله... وخطا الفتى خطوة أخرى جلس على طرف المقعد؛ فجفلت الفتاة ونهضت وفي عينيها غضب وسخرية!...

واستيأس الفتى فمضى لشأنه، وعادت الفتاة لشأنها.. وتعاقبت على عينيها صور... وترادفت مواكب الفتيان والفتيات، وتجاوبت أناشيد الهوى والشباب، ورن الصدى في

أذنيها؛ وذكرت فتاها... وحنت إليه، واصطرعت في نفسها عاطفتان، فرضيت ثم سخطت، وترقرقت في عينيها عبرة...

... واتخذت نضار طريقها إلى مأواها وفي نفسها ألم، وإن ضحكات المرح والمسرة تتجاوب حواليها؛ ومضت تحدث نفسها وتستمع إليها، وفجأة برز لعينيها منظر... هذا رشيد وفتاة معه، يا ويلتا! إنه لهو، وتلك صديقتها (سعدية) وما لرشيد وسعدية؟... وأين وأيان اجتمعا؟... أتراه حين هجرها أبدل بها صديقتها؟... ولكن سعدية مسماة منذ سنوات على ابن عمها... أتراها هجرته بعد أن مات أبوه...؟

وخنقتها عبرة، ودار رأسها وكادت تسقط، فاستندت إلى الحائط؛ وتوارى الفتى وفتاته في زحمة الناس؛ وثابت نضار إلى نفسها، فاستأنفت السير؛ وكان فتيان وفتيات يزحمون الطريق مثنى مثنى، وكأن كل اثنين من نجواهما في خلوة. ومضت تشق طريقها وفي نفسها عواطف تصطرع وتثور؛ وهتف هاتف في أعماقها: أكل أولئك... وأنت وحدك...؟

وهمت أن تعود من حيث أتت، فتجلس ساعة على المقعد الذي كانت تجلس عليه في شارع مسبيرو، على الشاطئ النيل... حيث قال لها فتى منذ قليل: أنت وحدك... وأنا وحدي...! فمالها طاقة على مثل هذه الوحدة الذليلة... واليوم عيد الربيع...!

وصرت أسنان الفتاة، وقمعت خواطرها، واستأنفت السير، وراحت تسائل نفسها: أكذلك الحياة؟ ليتني لم أكن أعلم...!

وراحت تصعد السلم درجة درجة وهي تعد، وكان البواب جالساً يهمس في أذن ضيفه؛ ورنت ضحكة البواب وصاحبه في أذنيها، فوقفت وأحمر وجهها من الغضب؛ أتراه يحدّث صاحبه عنها؟ فماذا يقول؟... أم تراه يحسبها فتاة كبعض مَن رأت اليوم؟ ومِن أين له أن يعرف حقيقتها؟...

وما ظنُّ الناسِ بفتاة عزباء، تعيش وحدها في غرفة على السطح، ليس لِباب السطح بواب، تخرج حين تخرج وحدها وتعود حين تعود، لا يعرف أحد أين ذهبتْ ومن أين جاءتْ؟

... وتماسكتْ من ضعف، واستأنفت الصعود... وبلغتْ غرفتها فارتمت على سريرها باكية!

وأخذتها غفوة واستيقظت أحلامها؛ ولما صحْت من غفوتها بعد ساعة؛ كانت نظرتها إلى الحياة غير ما كانت... وماذا يجديها أن تحرص على التزام الجادة والناس هو الناس، وكل فتاة عندهم ككل فتاة؟

... وجلستْ نضار إلى المرآة تتزين - المرآة التي لم تجلس إليها منذ عام مجلسَ فتاةٍ إلى مرآتها، ونفضت الغبار عن

حقيبتها، وراحت تبحث فيها عن شئ من تراث الماضي... وخلعت ثوب الحداد الذي لم تغيره منذ لبسته...!

وسمعتْ طرقاً على الباب... وفتحت... فابتدرها البواب يُؤذنها أن فتى بالباب يسأل عنها، وابتسم... وشحب لونها، وقالت في صوت يرتعش: ما اسمه؟ وماذا يريد؟...

ولكن البواب لم يكن يعرف أسمه ولا ماذا يريد؛ فما كان يعنيه إلا أن يؤذنها أن زائراً يسأل عنها، ثم هبط مسرعاً...

وأطلَّتْ الفتاة وراءه لترى، ولكنها لم تر...!

... لقد غشيتها الدموع وحضرتها الذكرى فما تستطيع أن تسمع أو ترى أو... تفكر!

منذ عام لم يهتف هاتف باسمها ولم يزرها زائر... فمن يكون هذا الطارق؟...

وعاد إليها البواب برسالة في يده قبل أن تجد نضار جواب سؤالها؛ وتناولت منه الرسالة بيد ترتجف، وراحت تقرؤها وهي في طريقها إلى غرفتها... وسقطت دمعتان على القرطاس في يدها وكانت تبتسم... ولم تفطن إلا بعد حين أن البواب لا يزال منها على مقربة؛ ولأول مرة منذ سكنت هذه الغرفة المفردة، شعرت أن من الواجب عليها أن تمنح البواب شيئاً... فعادت حقيبتها الصغيرة ومدت يدها إليه بقروش...!

وأغلقت بابها وراحت تعيد قراءة الرسالة؛ ثم رفعتها إلى شفتيها فقبلتها قبلة، وهمست: نعم، أحبك لأنك أنت. . .

وحتى في خلوتها لم تنس أنها امرأة. . فعادت تقول: نعم. لأنك أنت تحبني حين لم يذكرني أحد!

ثم طوت الرسالة وأخفتها في صدرها. . .

كان (سامي) يعرفها من زمان، وكانت تعرفه؛ ورآها ذات ليلة تحدثه في منامه ويحدثها فطمع. . . وكان مجمعاً أمره على خطبتها حين جاءه النبأ بأنها سمَّيت علي رشيد، فطوى جوانحه على آلامه وسكت. . .

وضربت بينهما الأيام فصعدتْ بها إلى غرفة في السطح، ورمت به النوى من بلد إلى بلد إلى بلاد، ثم عاد ليعرف من أمرها ما عرف. . . فكتب إليها. . .

. . . وتم أمرهما على ما أرادا وأظلهما سقف واحد، وابتسمت لها الأيام بعد عبوس!

ومضى عام وجاء عيد الربيع، وقال لها: أين تريدين يا عزيزتي أن نمضي يوم العيد؟

وتغشَّتها الذكرى فأطرقتْ وفي قلبها عواطف تصطرع، ثم رفعت رأسها وقالت وهي تبتسم: أتريد يا سامي؟. . . إنني أفضل أن نجلس على مقعد خشبي على شاطئ النيل، في شارع مسبيرو، ثم نعود. . . . . .

وضحك سامي دَهِشاً وهو يقول: على مقعد خشبي؟ في شارع مسبيرو؟ يالها فكرة! بربك لماذا؟ وأي خاطر ألهمك؟

قالت وفي عينيها بريق وفي صوتها حنان وفي أعطافها نشوة: تسألني لماذا. . .؟ لأنكَ أنت هناك. .! حيث التقينا أول مرة في خطرة فِكر وخفقة قلب، وكنتُ وحدي هناك ولكني كنتُ معك. . .!

obeikan.com

إنه أخي...

كان المطر ينهمر، والريح العاصف تحمل قطرات الماء إلى وجوه المارة وثيابهم، فتغمض عيونهم، وهم يسيرون على حيد الطريق في حذر ورقبة خشية أن تزلق أقدامهم فيتدحرجوا في الوحل، والسيارات منطلقة براكبيها من ذوي اليسار والنعمة، فتقذف عجلاتها رشاش الماء على جانبيها فيصيب وجوه الناس وأرديتهم، لا يكادون يدفعون عن أنفسهم شيئاً مما تقذفهم به الأرض أو تنالهم به السماء

وكان الليل في أوله...

وفي مُنْعطَف يُفضي إلى أربعة بيوت في حي (شبرا) كان فتى دون الثلاثين واقفاً تحت السماء وقفة مرتقب وعيناه معلقتان بنافذة مغلقة، لا يزيد على أن يرفع لها عينيه حيناً، وإلى الطريق العام حيناً آخر، وهو واقف، والساعات تمضي، والمطر ينهمر، والريح تلطم وجهه بقطرات الماء، وفي يده ورقة مطوية...

وكان بوابو البيوت الأربعة مجتمعين وراء أحد الأبواب، وبين أيديهم نار يصطلونها وهم يسمرون، وكان لكل أسرة من سكان البيوت الأربعة حظ من حديثهم وسمرهم؛

وهل يجتمع مثل هؤلاء إلا لمثل ذاك؟ وكانوا في غفلة عن الفتى، والفتى عنهم في غفلة...

وطال الانتظار بالفتى ونال منه البرد القارص، ونفذ الماء من ثيابه إلى جسده، وكان شعره الأشعث يقطر ماء على جبينه؛ فلم يتنبه إلا من بعد هذه الشرفة التي تلقي ظلالها على جانب من الطريق، فأوى إلى ظلها يحتمي من المطر والريح في هذه الليلة الباردة...

... لولا ثيابه الحائلة، ونظراته الضارعة، وذلك الفتور في عينيه، وهذا الشحوب في وجنتيه، ولولا هذه اللحية التي لم يمسها حدّ الموس منذ أيام - لحسبه من يراه عاشقاً قد أضّله هواه فأخرجه في هذا الجو العاصف، يرجو موعداً أو يتزود بنضرة... ولكن على وجهه سمات ليس مثلها في وجوه العشاق!

ولكن... ما هذه الورقة المطوية في يده... فلعله رسول...!

وأخذته عيون البوابين وهم في حلقتهم يصطلون ويسمرون، فتهامسوا وضحكوا؛ وأحس الفتى وقع نظراتهم، فاستحيا، ثم تغافل ولوى عنقه...

لم يكن ذلك موقفه الأول. لقد طالما وقف (حسّان) هذا الموقف من قبل، وطالما أمتدّ به الانتظار في هذا المنعطف

ساعات؛ حتى إذا ما انفتحت النافذة المرموقة أسرع إلى الباب وصعد، أو كتب ورقة في حاجته فبعث بها مع البواب

من أجل ذلك كان مألوفاً لسكان الحي أن يروه في موقفه ذاك، وأن يسكتوا، ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يعرف ما وراء هذا الموقف من سر. ولكن بواب البيت كان يعرف فأسر النبأ إلى صفوته من بوّابي الحيّ...

وهجست الهواجس في ضمائر سكان البيوت الأربعة، فكان لكل واحد مع أهله حديث... وتناثرت الإشاعات ثم اجتمعت، فإذا على ألسنة السكان جميعاً خبر واحد: هو أن للسيدة فلانة سرًّا تحاول أن تخفيه إلا عن الفتى وعن البواب.

... لو وقف (حسان) مثل هذا الموقف كل يوم مرات في غير هذا المنعطف ما أحس به أحد ولا سأل عن خبره سائل. كم فتى، وكم فتاة، وكم رجلاً، وكم امرأة - يمشون كل يوم، ويقفون، ويتواعدون، ويتلاقون على أعين الناس في الشوارع الحافلة، ثم يودع بعضهم بعضا ويمضي لوجهه؛ فلا يثير أحد منهم فضول عابر ولا يسأل عن خبره سائل. ولكن هنا، في هذا المنعطف الذي يُغْلق بابُه على بيوت أربعه قد تعارف سكانها فرداً فرداً فلا يكاد يخفى على أحدهم خبر جاره - هنا في هذا المنعطف كان وقوف حسان مثار فضول ومبعث ريبة

ولم يكن حسان عاشقاً ولا رسولاً ولكنه أخو السيدة فلانة زوج الطبيب فلان...

هل يصدق أحد؟ ولكنها الحقيقة...

هذه السيدة التي يراها من في أبهتها كأنها أميرة، أخت هذا الفتى البأس الشريد الذي يقف كل يوم هذا الموقف ساعات، تحت المطر الهاطل، وفي مهب الريح السافية، وفي أتون الشمس المحرقة يترقب، ينتظر اللحظة المناسبة ليكتب إليها فيعود له البواب فيضع في يده بضعة دراهم؛ ثم يمضي، ليعود بعد يوم، أو بعد ساعات فيقف موقفه يترقب، وفي يده ورقة مطوية.....

ماذا كان حسان في أوليته وماذا صار؟

لقد نشأ في بيت رفيع العماد عالي الذرا، ثم كان له ولأخته ما خلف أبوهما من ثروة ومال، وكان تلميذاً في المدرسة يوم مات أبوه، وكانت أخته مسمّاة على الفتى الذي صار له من بعد...

...وآلتْ ثروة أبيه جميعاً إليه، وإنها لثروة. وهجر الفتى مدرسته ومضى على وجهه يبيع اللذات ويشتريها، ونصب الشيطان له حبائله من الفراغ والشباب والمال...

وانتقلت أخته إلى دار زوجها وخلفت قصر أبيها بما فيه، ولكن قصر أبيه كان أضيق من أن يتسع له، فأغلق بابه

ومضى ينتقل بين أندية اللهو ومجالي الهوى ومسارح الشباب، وبسط يده على موائد الشراب والقمار، وتقاذفته الأقدارُ قَدَرٌ إلى قدر، وأغمض عينيه وسبح في أوهامه، وطارت به أمانيه ثم سقطت؛ وفتح عينيه فإذا هو وحيد شريد صفر اليدين من المال والصحاب...

وذكر أخته بعد سنين من القطيعة، فراح يشكوا إليها؛ ودمعت عينا السيدة رثاء لأخيها وشفقة عليه؛ ثم ذهبت إلى صوانها ففتحته وعادت له بما تملك...

وخرج الفتى من مجلس أخته برأس مال صالح لو أنه أراد... وكان يريد، ولكنه رأى أن يودِّع ماضيه بليلة ساهرة من ليالي الهوى والشباب، ثم يُصبح.....

وأصبح... وعاد كما بدأ...

واستمرت الكرة تتدحرج...

وعاد حسان إلى أخته بعد شهر، وقال لها وقالت له؛ ونهضت إلى صوانها ثم عادت فارغة اليد... وعاد زوجها من عمله، والتقى الثلاثة لقاء الأهل بعد فراق طويل...

وأسرت الزوجة حديثاً إلى زوجها، وباحت بما باحتْ وكتمت ما كتمت... وأخذ الثلاثة في حديث طويل...

... وقال الزوج:... نعم، مني المال وعليك العمل، إنها تجارة رابحة، وإنك بها لخليق أن تبلغ الغنى في سنوات، لو أنك.

وتعاهدا على الإخلاص والصدق، ووثقا عقد الشركة بالأيمان ودفع الزوج المال، وخرج حسان لأمره... ولمَ يعد.....

لولا الشهامة والبُقْيَا لكانت الفاصمة بين الزوجين، ولولا دموع السيدة...

وهمَّ الطبيبُ أن يرفع أمره إلى القضاء، ثم سكت؛ وماذا يردُّ عليه القضاء من ماله وإن غريمه مفلسٌ لا يجد رمقه...؟

وصبر على غيظ، وسكتتْ زوجه على حسرة وألم!...

وضاقت بالفتى أيامه، فعاد يتذكر أخته... وسعى إلى بابها وسأل، وكان زوجها في الدار، فتوارى الفتى يترقب، وطوى ورقة مكتوبة ودفعها إلى البواب... وصار هذا شأنهما من بعد..

وكان يقصدها كلما ضاق به أمره، ليس بين المرة والمرة إلا أيام، فتعطف عليه أخته وتنيله؛ ثم تقاربت مواعيده حتى صار له راتب مفروض في كل يوم. وبَصُر به الطبيب مرة وهو خارج فأخصى كأن لم يرى. وتجرأ الفتى من بعد فاستعلن، وراح يطرق الباب حين يشاء من ليل أو نهار يطلب ما يطلب، وترادفت مطالبه...

وضاق صدر الزوج ونفذ احتماله، فتصبرَّ... ثم علم من شئون حسان ما لم يكن يعلم، فغضب لنفسه...

لقد يكون من المحتمل أن يلقى الرجل ذا حاجة فيدفع إليه بعض ما يستعين به، ولقد يؤثره على نفسه بما يمنحه؛ ولكن منذا تطيب نفسه بأن يكون ما يدفع إلى ذي حاجة من ماله وسيلة إلى اللهو الحرام؟

هكذا قال الطبيب لنفسه فثارت ثائرته. إنه يشقى ما يشقى في تحصيل هذا المال، ليسعد به وليسعد غيره؛ لا لينفقه حسان على موائد الشراب والقمار!

وتحدث إلى زوجته بما في نفسه وإن كلماته لترتجف من الغضب، واستمعتْ زوجته إليه مطرقة، ثم خلَتْ إلى نفسها لتبكي...

ولم يكفُ حسان ولم تحرمه أخته، وعاد الأمر بينها وبين أخيها سراً كما بدأ، واستمرا المرعى فكشف الحجاب... وكان ما تنيله معروفاً ونافلة فعاد ضريبة مفروضة، وتكررت مطالبه وكثر مطلوبه، وألح إلحاح الجابي على مدين مماطل...

وتعود سكان الحي أن يروه كل يوم مرة أو مرات في موقفه ذاك ذليلاً ناكس الرأس، وعينيه إلى النافذة أو إلى الباب، حتى إذا أمكنته الفرصة وثب فكان على باب أخته، فحيناً يكون الأمر بينهما تشكياً واعتذاراً، وحينًا يكون تهديداً وصخباً وضجة، وهمَّ بأخته مرة يحاول أن يضربها لتعطيه..

تعطيه من مال زوجها ما يعينه على ثمن الشراب وتكاليف الشباب، ثم يتركها لأحزانها ويمضي لهواه...

وضاقت به أخته كما ضاق به زوجها من قبل...!

وقالت له مرة وفي عينيها دموع: حسان، ليتني كنت أستطيع، ولكني لا أطيق أن أخون زوجي في ماله، وإني لأستطيع أن أعطيك ما تستعين به على العيش، ولكن لا أعطيك للشراب وللقمار!

وضحك الفتى ساخراً وقال: الشراب والقمار! تريدين أن تربّيني؟... إذن فأنت لا تمنعين المال عني للعجز والحاجة ولكنك تحاولين تأديبي...؟

وبرقت عيناه وأطلت منهما نفس شريرة، فتراجعت أخته مذعورة تطلب الحماية في متاع الدار، ووثب عليها فصرخت... ثم خرج راضياً...!

وطال حديث الناس عن السيدة المصونة، وقالوا ما قالوا، وتناولتها الرّيب والظنون؛ وبلغها ما يقال الناس فزادت هماً على هم...

وأوصتْ البواب أن يردَّه إذا رآه وأن يحول بينها وبينه، وكانت في حال من الغضب خيَّلت إليها أنها تستطيع أن تنسى أن لها أخاً...

..وجاء الفتى إلى موعده، وكان زوجها في الدار...

كـان المطـر ينهمـر، والـريح العاصـف تلطـم الوجـوه بقطرات المطر، وعجلات السيارات في سرعتها تقذف رشاش الماء إلى وجوه الناس وثيابهم... والفتى في موقفه لا يحس برد الليل، ينتظر غفلة ليصعد إلى أخته

وكـفَّ المطـر، وهـدأت الـريح، وانفـتح البـاب وخـرج الطبيب لبعض عمله؛ فتسلل حسان إلى الدار...

ومضـت لحظـات قبـل أن يسـمع البـواب مـن يناديـه، فصعد؛ وقالت السيدة في غضب وثورة: ألم أطلب إليك... ألم آمرك أن تمنعه...؟

وأطاع البواب فهمَّ بالفتى ليطرده، ونشبت معركة...

وكنت خارجاً لبعض شأني أخذ عيني هذا المنظر...

وكان شـرطي يسـوق الفتى وقـد اجتمـع عليـه البوابـون الأربعـة والفتـى يتوسـل، ودخلـت في الزحـام أريـد أن أعـرف، وكانت عينا حسان إلى النافذة، وثمة سيدة تنظر...

ورأيت الفتى الذي أخذتْه عيناي من قبل مرات، وكان يبكي وينظر إلى النافذة... وكانت السيدة تبكي له...

وقـال البـواب: لقـد أمرتنـي... أمرتنـي أن أدعـو لـه الشرطة، إنه لا يكف عن مضايقتنا ليل نهار...

وقال الفتى بذله: اسألها يا سدي إنها... إنها لا تريد...

وقالت السيدة وصوتها يقطر أسى: دَعُوه...!

وغضبتُ وثارتْ غيرتي.. وذهبتْ نفسي مذاهب من الريبة وسوء الظن، وأطل الفضول من نوافذ البيوت الأربعة.. وتوقع الجيران أن يشهدوا فضيحة... وظنوا الظنون...

وعاد الفتى يتوسل، والبواب يتشدد، ويد الشرطي في عنق الفتى وعيناه إلى هناك... وعادت السيدة تقول في ضراعة: دعوه أرجو أن تتركه يا سيدي؛ إنه... إنه أخي...!

وأغلقتْ النوافذ المفتوحة، وتوارت الرؤوس المطلة، ومضى الشرطي والبواب بالفتى؛ وجلس الجيران يتهامسون؛ وكانت سيدة تجلس وراء النافذة وحدها، في وجهها أظفار دامية وفي عينيها على الذي أدماها دموع...

obeikan.com

البعث

جلس (أحمد) على مقعد في جانب من غرفتي الخاصة وارتفق بذراعه على المنضد الصغير وراح يفكر...

إن بعض الصور التي تتناولها العين في نظرة عابرة قد يكون لها من التأثير في حياة بعض الناس مالا تؤثر الأحداث العظيمة التي تهز العالم. هذا أحمد، شتان ما هو الساعة وما كان منذ ساعات. لقد عاد لتوَّه من السيما حيث كان يشهد رواية عن حياة الأديب الفرنسي الكبير (إميل زولا)... فأين هو الساعة مما كان قبل ساعات؟

لقد رأى وسمع وعرف، ونظر إلى نفسه وحضرته ذكرياته وأمانيه، وراح يحاسب نفسه على ما أدى من عمل وما نال من جزاء، واستغرق في تفكيره...

منذ بضع عشرة سنة لم يألُ أحمد دأباً إلى غاية يستشرف إليها؛ فأين بلغ مما أراد؟ هذه حياته التي يحياها منذ كان، لم يتغير منها شيء يشعره شيئاً من الأمل فيما يستقبل من أيامه؛ ففيمَ كان جهاده ودأبه بذل من أعصابه ومن دمه في بضع عشرة سنة؟

أتراه يستطيع أن يقنع نفسه بأنه قد بلغ شيئاً؛ فأين؟. وتراءت له صورة (سعدية) الفتاة التي وهب لها نفسه ووقف عليها أمانيه، وتذكر من ماضيه القريب ومن ماضيها.

لقد تعارفنا منذ سنوات، بل لقد عرفته قبل أن يعرفها، فسعتْ إليه، فالتقيا، فما افترقا بعدها إلا على ميعاد؛ ولكن سعدية اليوم غير ما كانت، لأنه هو هو لم يتغير ولم يزد شيئاً على ما كان يوم عرفته!

أيكون ذلك هو السبب الحق لما بينهما اليومَ من الجفاء والمباعدة؟ ذلك ما خيَّل إليه هو حين افترقا لآخر مرة منذ قريب فهجرها وإن في قلبه من الشوق إليها لهيباً يسعر!

لقد كان (أحمد) أديباً موهوباً. إنه ليعرف ذلك من نفسه، وإنه ليؤمن به إيماناً لا سبيل إلى الشك فيه؛ وكان حقيقاً بهذا الإيمان أن يبلغ به المنزلة التي يهدف إليها منذ بدا ليتخذ مكانه بين أدباء الجيل. وكان على إرث من الأدب هيأ له الجو الذي يعنيه على استكمال وسائل الأديب وتحصيل مادته؛ واتخذ طريقه إلى الغاية التي يؤمل...

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة، ولم يألُ دأباً من يومئذ؛ وعرفتْه سعدية مما قرأتْ له، وكانت رسالتها إليه أول الصدى الراجع، وكانت هي أول من عرف من قرائه؛ وتوثقتْ بينهما الصلة، وكانت في أوَّلها إعجاباً بالعقل الجميل فعادت

أملاً يأمله وحلماً يتراءى لها... ومضى الفتى إلى غايته والحياة تُجِدُّ له في كل يوم أملاً وتوقظ عاطفة!

وكتب وخطب، ونظم وألف، وراح يناضل في جهد الجبابرة ليشق إلى المنزلة التي يتنورَّها من بعيد؛ وقالت له فتاته: (متى أراك يا حبيبي هناك؟) ولم يجبها فتاها، لأن عينيه كانتا تنظران إلى هناك!

ومشيا ذراعاً إلى ذراع بين الحدائق الضاحكة صامتين، أما هي فكانت تبحث بعينيها بين الفروع الراقصة عن زهرة نضرة تقطفها عن أملودها لتجعلها في صدرها زينةً تتيه بها على لذاتها وصواحبها، وأما هو فكان في إطراقه وصمته يتسمَّع نجوى الغصون وهمس الزهر لينظم منها قصيدة ترفَّ رفيفَ الغصن وتنفخ نفخَ الزهر! وطال عليها الطريقُ وما بلغتْ، فقالت: متى يا حبيبي...؟ وقال... ولم تعَ ما قال ولم يعَ ما قالت؛ وتدابرا ومضى كلٌ منهما لغايته، وراحت تبحث عن الزهر وراح يبحث عن معناه... وكان فراق بينهما!

وعاد إلى داره في المساء وما في الدار غير خادمته العجوز، وجلس إلى المائدة ينتظر عَشاءه، وأبطأت الخادم لأن الدار لم يكن فيها عَشاء فتأتي به... وضحك حين عرف، وعيَّث في جيبه قليلاً ثم امسك، وآثر أن يطوى ليلتَه بلا عشاء؛ فإن ذلك أخلَقُ يَجِمع له نفسَه ويوقظ حسَّه!

وجلس إلى مكتبه لحظات يقرأ بريد المساء؛ وكان بينه رسالةٌ تنفح عطراً، وقرأ...

(سيدي...

(... وإني أرسل إليك تحياتي على البعد...

(إنها لحظاتٌ سعيدة حين أقرأ لك فأشعر أني منك على مقربة وأنك مني...

(وإنه ليخيل إلي أحياناً وأنك...

(إنك لست بعيداً مني؛ أفتُراك تعرفني؟ ولكني أعرفك، و... وأحبك!

(ومعذرة...!)

وابتسم الفتى ثم عبس، وذكر سعدية... ثم طوى الرسالة وأودعها غلافها؛ وقال وكأنما يتحدث إلى شخص يجالسه: ليتك تعرفين يا فتاة وليتني أعرف! بل إنني أريد أن تعرفي! إنك تنشدين الزهر ليكون لك زينة تباهين بها في المحافل، وإنني أنشد معناه لأتخذه وحياً أتصل بأسبابه إلى السماء... كذلك كانت أختٌ لك من قبل!

ولكنه كان راضياً...

لم يبلغ المجدَ الأدبي الذي يناضل له منذ بضع عشرة سنة، ولم يبلغ الغنى، الغنى الذي يكفيه حاجة الحيَّ إلى وسائل

الحياة؛ ولكنه كان راضياً، لأنه كان مؤمناً بنفسه، ومؤمناً بغده! ومضى على وجهه...

... وراح إلى السماء عشيةً يتزود لفنه وأدبه ويستجمَّ، ثم عاد...

لقد رأى وسمع وعرف، ونظر إلى نفسه، وحضرته ذكرياته وأمانيه، وراح يحاسب نفسه على ما أدى من عمل وما نال من جزاء، واستغرق في تفكيره...

وكان عليه أن يسد الخطبة التي طلبُ إليه أن يذيعها بعد أيام، احتفالاً بذكرى الأديب الراحل فلان؛ ذلك واجب لا يعفيه من إغفاله أن يعتذر؛ فإنه لصديقه، وإن له عليه ديناً يقضيه الوفاء أن يذكره به فيتحدث عنه حديثاً في يوم ذكراه!

وشرع قلمه، وهم أن يعد الخطبة التي ينبغي أن يذيعها عن صديقه الأديب الراحل في يوم ذكراه. واستجمع فكره، وتذكر شيئاً...

يا عجبا! ذلك الصديق الذي يهم أن يتحدث عنه، ماذا كان في حياته، وماذا هو اليوم عند الناس؟ لقد عاش حياته يجاهد لأمته ما يجاهد صابراً محتسباً قانعاً بالكفاف، لا يذكره أحدٌ بحق ولا يعرف له بداً... فلما غاله الموت - لما غاله الموت فقيراً معدماً بعيد الدار كثير الولد - تدانت الرؤوس، واختلجت الشفاه، وسحت العبرات، وصاح الصائح في الأمة يدعوها

لتخليد ذكراه، فإن حديثه اليوم على كل لسان، وإن ذكره في كل قلب... كذلك كان حياً وميتاً، فما متأُعه بما صار وما عزاؤه عما كان؟

ماذا؟... أليس يعرف الناس للأديب حقه إلا أن يموت؟ ما أغلاه ثمناً للمجد!

وابتسم الفتى ساخراً، ثم سكت، وعاد إلى نفسه يؤامرها... وانصرفت نفسه عما هو فيه؛ وتناول حزمةً من الرسائل لم يقرأها بعد، وفض منها رسالة، وقرأ:

(سيدي...

(... فلماذا؟ ولماذا لا نجد في الأمة العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء أوربا؟)

وطوى أحمد الرسالة وهو يتمم: نعم، لماذا...؟ لا لا، إنني أكاد أعرف... ولكن، لماذا... لماذا لا يزال - مع ذلك - والغنى؟ هذا هو السؤال الذي يحق!

وتذكر الرواية التي شاهدها في السيما منذ ساعات، وتذكر صديقه الذي يهم أن يعد حديثاً عنه ليوم ذكراه... وصمت برهة، ثم وقف، وراح إلى المصباح فإطفاء، وقصد إلى فراشه، ولكنه لم ينم... واستغرق في تفكير عميق... وأحسبرد الراحة على قلبه حين انتهى من تفكيره إلى حد...

. . . وأصبح أصدقاء أحمد يسألون عنه فلا يجدونه، ومضت أيام ولا حسٌّ ولا خبر، إلا رسالة موجزة تلقاها بعض صحبه، وليس فيها إلا هذه الكلمات:

(إنني ذاهب. . . لقد برمت بدنياي. . . وداعاً يا أصدقائي!)

وجدَّ أصدقاؤه في الطلب فلم يقفوا له على أثر، وظنوا الظنون. . . ثم استيقظوا، حين عثر بعض الرواد في صحراء الجيزة على أشلاء آدمية تكاد تواريها الرمال في قعر هوة سحيقة من هُوى الصحراء. لم يكن ثمة وجه يبين، ولا لسان ينطق، ولا اثر يدل، إلا قميصاً خلقاً قد حال لونه وتمزقت حواشيه، لقد أكل الوحشُ من ذلك الجسد ما أكل وأبلى الرمل ما بقى، فما هو الإعظام نخرة وأنابيب جوفاه وأديم ممزق!

وقال واحد من صحابته: لقد توقعت له هذه الخاتمة منذ بعيد، ويا طالما حذرته من ارتياد الصحراء وحيداً في غبشة الصبح وفي ظلمة الغسق فلم يسمع لي؛ يزعم أنه يجد هناك مهبط الوحي ومنبع العبقرية!

وقال الثاني: وكذلك زعمت لنفسي حين جاءتني رسالته يودعني ويستودعني؛ لم يقع في نفسي إلا أنه ذاهب إلى الصحراء؛ لقد تحدث إلى مرة. . . وكان يتشوف إلى اليوم الذي يفارق فيه دنيا الناس إلى معتزل هادئ على حدود الصحراء

يأنس فيه إلى الوحش فلا يرى أحداً من الناس ولا يراه أحد! فلعله...!

وقالت الثالث: يرحمه الله! وانحدرت على خده دمعة فجاوبتها أخواتها من عيون أصحابه؛ وعزى بعضهم بعضاً؛ ثم انصرفوا يحملون رفات الشاعر الشهيد إلى مثواه؛ وتداعى الناس إلى مأتمه محزونين وإن حديثه ليرطب كل لسان؟

وكتبت اسم أحمد في سجلَّ الراحلين من أدباء الأمة... وصاح الصائح في الأمة يدعوها لتخليد ذكرى الأديب الراحل، وطفحت أنهار الصحف الأدبية بالحديث عنه وتمجيد ذكراه!

وانقدت جماعات، وتألفت كتب، وبذل مال؛ وتزاحم الناشرون يزايدون بالمال لشراء مخالفاته الأدبية... وجدَّ البُعداءُ من أهله يطلبون نصيبهم في تركته!

ومضى عام قبل أن يحددَّ يوم يقوم فيه الخطباء والشعراء لتأبينه، وكان يوماً مشهوراً...

كان المدرج الكبير غاصاً بأهل الأدب، وسروات المدينة، وذي الجاه والرياسة؛ وقد نُصَّتْ في صدره منصةُ عالية عليها كراسي مذهبة، يشرف عليها صورة مكبرة للفقيد العزيز مجللة بالسواد، تطل منها عينان ساخرتان على تلك الجموع الحاشدة؛ وكان في ركن من القاعة فتاة ذات جمال قد انتقبت بنقاب أسود شفيف مبتلٍ بالدمع، وإلى جانبها فتيات. تلك هي

سعدية؛ وجلس في الصف الأخير بضعة فتيان شُعْث غُبْر قد تأبطوا كتباً وصحفاً ومجلاّت قديمة، تدل ثيابهم وهيئتهم على الفقر والقناعة و... والعبقرية، وتنطق سِماتُهم وشارات الحداد في وجوههم بأنهم أكثر أهل الحفل إخلاصاً لذكرى صاحبهم الذي مات...! أولئك أسرة الفقيد من أهل الأدب!

وكان على الباب بوابون من ذوي اليسار والنعمة، يستقبلون القادمين ويدعون كلا منهم إلى مجلسه يوائمه. وتدلَّت الأنوار ثريات تكشف الشمس وتبهر النظر. وكانت حفلة، لو أحصى ما أنفق في أعدادها لكان حياةً من موت وغنى من مَتْرَبة!

وغصَّ البهو والشرفات بالوافدين على الحفل من أهل الوفاء والأدب؛ وحل الموعد، وصَغَتْ القلوب وأرهفتْ الآداب!

ووقف الخطيبُ الأول يذكر تاريخ الفقيد؛ وكان يلبس حلةً سوداء غالية، وقد أحكم المنظار على عينيه وتدلت سلسلته الذهبية على كتفه، وبَرَق الماس في إصبعه؛ وبدأ يخطب:

(أيها السادة!)

وكان السادة منصتين في لهفة وتأثر...

وتتابع الخطباء والشعراء يذكرون ما يذكرون من فضل الفقيد وعبقريته وعلمه وخسارة الأمة بفقده

وقال قائل لصاحبه: (يرحمه الله!)

فقال صاحبه: (أما إنها لخسارة!)

وكان ثمة فتى رث الثياب، مخرَّق النعل، مرسل اللحية، يقتحم الصفوف صفاً صفاً يقصد إلى المنصة التي يتبارى عليها الخطباء...

وتأفف الناس وزمَّوا شفاههم استكراهاً وغيظاً، لكنهم صمتوا إجلالاً للحفل، وبلغ الفتى حيث أراد وهم أن يصعد، فاعترضته الأكفّ؛ ولكنه صعد...

وأخْذته العيونٌ من كل جانب، وكان يبتسم وفي عينيه سخرية وشماتة!

وفرغ الخطيب من خطبته فتنحى عن موقفه، وتقدم الفتى إلى موضعه، وهمَّ أن يتكلم...

وتدافعته الأيدي... ونظر إليهم ونظروا إليه... وتعارفت وجوه وتناكرت وجوه؛ ووقف الفتى ثابتاً في مكانه، وارتفع صوته يُبثُ جلاجِل نفسه، وهتف:

(أيها السادة...!)

وسمعها السادة وقوفاً وأبصارهم إليه، ومضى يقول:

(أشكركم...!)

وعرفه من عرف ولم ينكره من جهل، وتدافعوا إليه... إنه هو... إنه أحمد!

(ذلك يوم البعث ولا ريب): قالها كل مستمع لصاحبه. . . لم يمت أحمد، ولم تأكله وحوش الصحراء، ولم يحمله من حملوا إلى قبره يوم حملوا الرفاتَ المجهول النسب من مجهل الصحراء إلى معلمها؛ ولكنه كان حياً يرزق. كان يهيئ نفسه ليلقي أبلغ خطبة جهر بها خطيب، وأبْين قصيدة نظمها شاعر؛ وابرع سخرية أبدعها أديب؛ فخطب ونظم وسخر. . . واستمع لرأي الناس فيه ميتا حياً، وأسمعهم رأيه. وبلغ المجد الذي أراد، وبلغ ما شاء من الانتقام لنفسه ومن السخرية بالناس! وعاش!

obeikan.com

عُرْس القرية

كانت (راجية) تعلم أنها مفارقةٌ المدينة غداً، ما من ذلك بُدّ؛ لقد حاولتْ أن تنسأ الأجل إلى الرحيل فلم تظفر بطائل، وافتنَّت في الاحتجاج لرأيها ما افتَّنت فلم يستمع لها أحد؛ وأجمعت الأسرة أمرها على السفر إلى الريف لتكون بمنجاة من ويلات الحرب... حقاً؟ أيكون الريف أبعد من المدينة عن ويلات الحرب؟ هكذا زعم أبوها وأخوها وليس لرأيهما معقِّب...

وراشت راجية آخر سهم في كنانتها؛ فاصطنعت؛ العزم والقوة، وتماسكت من ضعف ورخاوة، وقالت: ولكن، يا أبي، إن للوطن عليّ حقاً يقتضيني الرفاء. ليس من المروءة أن أفرَّ والوطن يدعوني إليه... ينبغي أن أبقي لأقوم بواجبي في التمريض والإسعاف إذا لم تكن لي طاقة بحمل السلاح للدفاع والمقاومة؛ ينبغي...

وقاطعها أبوها: نعم، ينبغي، ولكن واجبك هناك، في القرية؛ إن اخوتك وأخواتك هناك في حاجة إلى التمريض والإسعاف أكثر من جرحى الحرب!

وابتسم ابتسامة عابسة؛ لقد كان يعلم أي فتاة هي في رخاوتها وضعف احتمالها، ولكنه يقاوم حجة بحجة...

وصمتت الفتاة برهة وهي تنقل النظر بين أبيها وأخيها وأمها، ثم هَمتْ أن تتكلم حين ارتفع صوت المذياع يعلن أنباء الحرب في الميدان القريب ثم سكت، وتلاشى الصَّدى في الغرفة المغلقة على أربع أنفس قلقةٍ مضطربة تتنازعها أهواءٌ وعلل وآمال على خشية وحذر ورِقبة. وقال الفتى بعد صمت: لقد بدأت البادئة فما بدُّ من الخاتمة...!

وحدَّقت أمه في وجهه مذعورة، وهتفت: صلاح أتعني .؟

قال (صلاح): نعم يا أمي إنه فرضٌ عليَّ يجب أن أتهيأ للوفاء به.

وأطرق أبوه وشفته تختلج، وعمَّ الجميعُ الصمت... وشعرت راجية لأول مرة أنها بإزاء أمر خطير يقتضيها أن تفكر في هدوء وروية... وعادت تنظر إلى أبيها وأخيها وفي عينيها سؤال ليس معها جوابه، وأحستْ إحساس المفارِق يودع أحبابه إلى حيث لا يدري متى يكون اللقاء؛ ووجدت حاجتها إلى الدمع فأسرعت إلى خلوتها!

وأغْفَتْ راجيةُ لحظاتٍ واستيقظت ذكرياتُها وأمانيها، فتعاقبتْ عليها الرُّؤى والأحلام، ثم أصبحتْ... ونسيتْ ما كان من حديث الأمس ومن خبره؛ فلم تعد تذكر شيئاً إلا أنها مفارقةٌ المدينة بعد قليل لأمرٍ لا تكاد تعرف له وجهاً ولا علة، وأنها لن تذهب إلى السيما بعد اليوم، ولن تلقي أصدقاءها

وصديقاتها، ولن تستمع بما كانت تستمع من اللهو حين كانت تخرج كل يوم إلى رياضتها بين حدائق الجيزة والجزيرة ومصر الجديدة، وحضرتْها صورٌ عدة، وانثالتْ عليها ذكريات... وذكرتْ... إن ثيابها الجديدة ما تزال عند الخيّاط لم تفرغ منها بعد، وقد كانت حقيقةً بأن تفرغ منها منذ أيام، لولا أن راجية كانت تؤثر الروّية في تفصيل ثيابها ريثما ترى أحدث الأزياء فنقيس عليها. ماذا تفعل اليوم؟ أفّ للحرب! لولاها لكانت اليوم - على عادتها في كل سنة - جالسةً تحت الشمسية الظليلة على شاطئ سيدس بشر؛ أو رائحة غادية في معرض زينتها بين كيلوباترا وخليج ستالي؛ ولكن الإسكندرية اليوم منطقةُ حرام، فمن ذا يخاطر بعمره بين الموت الأحمر من أجل ساعة عل شاطئ العريان؟ ومن ذي تحاول أن نشتري بعمرها كلمةَ إعجاب من شاب طائش تستهوية بزِيّها وزينتها؟

... ثم ذكرت القرية... ياه! منذ كم لم نذهب راجية إلى القرية؟ القرية التي نَمَتْها ونَمَتْ أباها وما تزال تغذوهما بخيرها وبِرِّها الدائم على عُنف ما تلقي من العقوق ونكران الجميل!

لقد فارقتْ راجية القرية منذ سنوات بعيدة، لعلها لا تذكرها، أو لعلها تذكرها وتنكرها لئلا يكون ذلك نميمةً على عمرها الذي تحرص على كتمانه... ولم تذهب راجيةُ بعد ذلك إلى القرية التي فارقتها طفلة، إلا مرة، مرة واحدة صحبتْ أباها

في موسم الحصاد؛ وكانت يومئذٍ فتاةً في أول صَحْوة الشباب، فما كادت تهبط القرية حتى لمت متاعها للرحيل، ثم لم تعد؛ فكيف يريدونها اليوم أن تهيئ نفسها لإقامة طويلة هناك، لا تدري متى تنتهي وكيف تنتهي؟

وضاق صدر الفتاة، وخيل إليها أن يداً تشد على رقبتها فتمنعها أن تتنفس؛ وكانت أمها في حجرتها تعد حقائب السفر!

وأخذت الفتاة زينتها وخرجت لأمر من أمرها، ولم تنس أن تنظر في صندوق البريد قبل أن تجتاز الباب! وكانت الظهيرة حامية، والشمس تفرش الشوارع من أشعتها الحمراء، وقد خلتْ مركبات التزام إلا من الموظفين العائدين إلى بيوتهم يتأبطون صحفاً وأضابير من أوراق الحكومة، أو يحملون إلى أهليهم من الفاكهة والحلوى، أو من الفجل والجرجير...!

واتخذت الفتاة مقعدها في الترام، وثمة عينان تلحظانها من مقعد قريب، وكانت في غفلة بنفسها وما يصطرع في قلبها من ألم... هاتان عينان تعرفهما وتعرفانها

ولما همت الفتاة أن تهبط من الترام عند بيت الخياطة، نظرت، فعرفتْ، فقنعت رأسها وتضرجت وجنتاها حياء؛ ثم مضت في طريقها لا تكاد تحملها رجلاها...

وأَجَدَّت لها عيناه ذكرى وألماً، وأطاف بها همٌّ جديد...

وحاولت الفتاة أن تمحو صورته من خيالها فما أطاقت؛ وكأنما تراءى لها في تلك اللحظة على غير ميعاد ليكون آخرَ ما يصحبها إلى القرية من صور المدينة!

. . . لم يكن (عابد) فتاها الذي تؤمل، ولكنها كانت فتاته؛ لقد كانت تعلم من أمره ما يحسبه هو سراً من سره، فإن له عينين لا تستطيعان الكتمان، تعبِّران عن معنى لا يبوح به لسانه ولا طاقة له به؛ على أنه لم يستطيع بكل ما طاق من قوة الحب أن يشغلها بأمره، ولا هو حاوله؛ ولكنها كانت تعرفه، وتحس وقع نظراته؛ وكان ذلك حسْبها وحسبه؛ فإنها لُكبرِ نفسها وهي منَ هي وحيث هي - أن ينتهي أملها عنده، وإنها لترى كل يوم من ترى وتسمع ما تسمع، فإن لها في كل يوم أملاً تأمله بالنهار وتحلم به في الليل. . . كان ذلك وهي في المدينة المتراحبة التي لا يغيب نهارها حين تغيب الشمس. . . أين هي غداً من أمانيها؟ وا أسفا! لكأنما ارتكبت إثماً جوزيت عليه بالسجن إلى أجل غير مسمى!

لم تكن راجية تعرف من الفرق بين القرية والمدينة إلا هذه الأضواء الساطعة، وتلك الملاهي الساهرة؛ ثم صديقاتها اللائى تراهن كل يوم ويرينها، ليس لهن من حديث إلا عن الأزياء والسهرات وأخبار الفتيان والفتيات؛ وأنشأت لها هذه الحياةُ التي كانت تحيا أمانيَّ وأحلاماً تراوحها وتفاديها في يقظتها وفي

منامها؛ وحين جاءتها (الخاطبة) بأول خاطب يطلب يدها أيقنت أنها من الغاية التي تهدف إليها على مقربة، فراحت تبالغ في الطلب وتشتط في الشرط؛ وحرصت من يومئذ على أن تعرف مالا يعرف إلا القليل عن طبقات الموظفين ودرجات الوظائف وسلالم الترقية لكل طبقة؛ ثم مضتْ تسترسل في أمانيها وحلقت في أفق بعيد؛ وراحت نُتبع عينيها كل منظر، وتُرعِى أذنيها كل نبأ، فاجتمع لها من المعارف بشئون الطبقة العليا من أهل المدينة ما خيَّل إليها أنها أو شكت أن تبلغ...

...وعلى حين غفلة صلصل الجرس يدعوها إلى الرحيل...!

وعادت الأسرة إلى القرية التي هجرتها منذ بضع عشرة سنة تلتمس حياة جديدة بين أنوار المدينة؛ لقد هجروا القرية يوم هجروها أربعةَ نفر، وعادوا إليها ثلاثة، وخلفوا رابعهم هناك مرابطاً ينتظر الآونة التي يدعوه فيها الوطن ليبذل شبابه!

واستيقظن راجية على صياح الديكة من وراء جدار؛ فنهضت من فراشها وفتحت النافذة تستروح روْح النشاط والقوة... ومرَّ الراعي بنافذتها يسوق ماشية... فما إن رآها حتى طأطأ رأسه وأوفض في السير، ونظرت في أعقابه، ثم ارتدّت عن النافذة...

يا لله! وفي القرية كثير من مثل هذا المسكين؟ عظم معروق في ثوب خلق يوشك أن يحطمه عصفُ الريح، يقد ماشية تكاد تنشق شبعاً وَرِيّاً؛ إنه يؤثر مماشيته على نفسه لتعيش فيعيش بها!

ثم تتابعت أفواج الفلاحين سارحين إلى حقولهم يتبعهم ولدانهم، قد أُوقرتْ ظهورهم بما يحملون، ومضى النساء إلى عملهن...

ووجدت راجية ما يشغلها، فنسيت شيئاً بشيء. ومر يومها الأول وهي ترى وتوازن وتحكم؛ ولما جلست في المساء على حافة القناة بين رفيقات من بنات يسامرنها ويتحفَّينَ بها، أحستْ في نفسها عاطفة جديدة تنمو شيئاً فشيئاً، ورأت في حديث هؤلاء القرويات روحاً ومعنى غير ما كانت تجد من حديث صواحبها في المدينة...

وأشرق القمر عليها وذاب غي ماء القناة شعاعُه، ونظرت إلى صواحبها ونظرن إليها فكأنما سكب القمر على قلبها من شعاعه الطهور فغسله مما فيه؛ وأحست فيضاً من الحنان والحب يغمرها فيدنيها إلى رفيقاتها قلباً إلى قلب وروحاً إلى روح؛ وذكرت كلمة أبيها:

(نعم يا بنيتي... ولكن واجبك هناك... إن اخوتك وأخواتك في القرية أحوج إلى التمريض والإسعاف من جرحى الحرب!)

بلى، وإنها لتشعر الساعة بثقل هذا الواجب على عاتقها أكثر ما شعرت في حياتها منذ كانت. إن عليها لهؤلاء المساكين حق الإرشاد والمعونة بكل ما تملك يدها من مال وما يملك قلبها من الحب.

وتبدلتْ راجية مذ طرقها هذا الشعور الجديد، فعادت فتاة غير من كانت!

وأحبت القريةَ أكثر مما كانت تبغضها، حتى لو أن أحداً راودها أن تعود إلى المدينة لتأبّت، وتزّينتْ لها القريةُ زينةَ عروس؛ فكل ما فيها جميل فاتن!

ومضت أيام، وبعث (صلاح) إلى أبيه:

(أبي!

(... وكل شيء هادئ، فليس ثمة خطر مما توقعْتَ أن يكون...

(وإني لأخشى أن يكون حياة القرية بحيث لا تطيب لكم فيها الإقامة، فإن رأيت...)

وقرأ الأب رسالة ولده فصبأ؛ لقد كان يقدّر - وهو ربيب القرية منذ كان - أنه يستطيع أن يعود إلى ماضيه فيعيش في

الريف عاماً أو بعض عام حتى تهدأ العاصفة ويعود السلام والطمأنينة إلى المدينة؛ ولكن... هاهو ذا يحسّ السأم والملالة ولما تمض أيام...!

واجتمعت الأسرة حول عميدها تفكر وتدبر، وقالت راجية: أبي... ولكن المدينة...

وقاطعها أبوها: لا يا بنيتي؛ لقد كنا مغالين في تقدير الأمر، وأظن خيراً لنا أن نعود...!

ولكن راجية لم تعد إلى المدينة، ولم يعد أبوها، لأن ضيفاً عزيزاً هبط عليهم في القرية فتلبثوا لاستقباله...

لقد أجمع (عابد) رأيه على أمر، فكتب إلى الأسرة يستزيرها في القرية، وكان معه صلاح.

وتحلق حول المائدة ثلاثة نفر يتشاورون في أمر ذي بال. وقال عابد، وقال صلاح، وقال أبوه؛ وتركوا لراجية أن تقول الكلمة الأخيرة؛ وقالتها، وانتهى النبأ إلى الجيران فتجاوبت الزغاريد من طاق إلى طاق.

وقال الفتى لفتاته: والأمر لك يا عزيزتي من بعد، فإن شئت كان العرس في المدينة، فإني لأعرف كيف تريدينه أن يكون، وإني ليسرني أن أرضيك...

وابتسمت راجية وقالت: شكراً يا عزيزي، ولكن إنني حريصة كل الحرص على أن تكون صديقاتي جميعاً إلى جانبي، هنا، وأن يشاركننا جميعاً في الفرح والمسرة!

قال عابد: يسرني... ولكن... أترين...؟

قالت: لا تبعد يا عزيزي! ماذا فهمت؟... إن صديقاتي اللاتي أعني لَيُلبِّينَ الدعوة مسرعات ولو كان موعدها غداً!

قال: غداً؟

قالت: نعم، والليلةَ إن أردت، إنهن غير بعيد!

واحتفلت القرية كلها بعرس راجية، لم يتخلف منها أحد!

لم تكن هناك ثريات، ولا أعلام، ولا سرادق منصوب، ولا موسيقى تعزف، ولا مطرب يغني، ولكن رجالاً أربعة كانوا جلوساً إلى نضدٍ صغير في دوار العمدة ينظرون في توزيع خمسين جنيهاً على أهل القرية، احتفالاً بزفاف راجية. أولئك أصدقاؤها وصديقاتها، لم تنس أحداً منهم، ولم يتخلف عن دعوتها أحد!

(راجح! حبيبي! أرجوك... إن العدوّ لا يرحم، ولا يعفو؛ فلا ترمِ بنفسك إليه... احرص على حياتك من أجلي يا حبيبي! عِش لي، أُوْلا، فاقتلني وأسدل بيديك أجفاني قبل أن أرى فيك مصارعَ أهلي وأهلك يا راجح!)

كانت (بدرية) تتحدث إلى فتاها وقد أمسكت بيديه، ورفعت إليه عينين مخضلّتين بالدمع وفي صوتها نبرة يأس وأسى. كانت موقنة بأنه لن يستمع إليها، ولن يجيب؛ ولكن جذوة الحب التي تؤجّ في صدرها كانت تبعث في نفسها إثارةً من الرجاء! واستمع إليها الفتى صامتاً وفي قلبه عواطف تصطرع، وفي رأسه خواطر تموج وتتدافع؛ وأوشك أن ينتكث عزمه، حين التقت عيناه بعينيها الدامعتين وأحسّ شَدَّ يديها على يديه كأنما تخشى أن يفر إلى أجله قبل أن تُقلى إليه كلمة الوداع!

وبرز القمر من خلل أعذاق النخيل، فألقى شعاعه على وجه الفتى والفتاة جالسين مجلسهما على مقربة من مضارب الحيّ، وقد سكن كل شيء منهما ومما حولهما، إلا قلباً يجف وأنفاساً تتردّد...

وثابت إلى الفتى نفسه حين أذكرتْه صاحبته مصارع أهلها وأهله؛ لقد كان موشكا أن يخور وتضعف عزيمته، ولكن

ذكرى أهلها، وأهله... ووطنه... قد ردّته إلى رأيه، فأفلت من يدي صاحبته ووقف، وهتف:

(نعم... ولكنَّ دم آبائي يا بدرية، ودم أبيك، وشرف الوطن... يناديني؛ لقد أقسمتُ أن أنتقم أو أموت، وسأنتقم، أو أموت... ويومئذ ألقى آبائي، وآباءك، رافع الرأس فخوراً بما بذلت لأهلي ووطني، من دمي...!)

وراح يدبّ على رمال الصحراء، تحت ضوء القمر، وبندقيته على كتفيه؛ لم يحاول أن ينظر إلى وراء فيودْع الفتاة التي كان كلَّ شيء في دنياها وكانت؛ ومضى ليجيب داعي الوطن!

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة، حين زحفت الجنود المغيرة من مربضها الذي ترابط فيه منذ سنوات على ساحل برقة، تحاول أن تبسط سلطانها على الجنوب كما بسطته على الشمال لتعيد مملكة الرومان في جوف الصحراء وتنشئ لها عرشها من جريد النخل في ظلال أغصان الزيتون...

واصطرعت قوتان، أما إحداهما فكانت تملك الحديد والنار وفي يدها السيف والذهب، وأما الأخرى فكانت تملك الإيمان بالله، والإيمان بالوطن... وترامى الفريقان بنبالهما، وسال الدم، وعقد الدخان ضبابة سوداء فوق رءوس العسكرين، ودارت رحى المنون!

وانتبه الفتى والفتاة من سكرتهما وحيدين قد فقدت أباها وفقد أباه وعمه؛ فأقسم من يومئذ قسمه وأبرم عزمه...

... وخلف الفتاة في الحي تنتظر مآبه!

لم تهدأ ثائرة البادية حين خيل للفتاح المغير أنْ قد غَلب وتسلط، ولكن جمرات تحت الضلوع تبص بصيصها ثم تختفي، ولا تخبو.

وقاد (راجح) فرقته الصغيرة فمضى بها حتى أوى إلى غار في طريق الرائد والسابل والقافل، يتربص على حذر ورقبة؛ فما يمر به وليٌّ ولا عدوٌّ إلا عرَّفه نفسه وحيَّره بين عاقبتيْه...

وشَرِيَ أمرُ الفتى وعزّ جنده، ووفدت إليه الوفود من أبنا البدو وأفلاذ الصحراء مذعنة لأمره مطيعة، وعقدوا له اللواء؛ وحار العدو حيرته فما عرف سبيلاً إليه ولا منجاة منه، وإن له العدد والقوة والعتاد!

وترامت أخبار الفتى إلى فتاته، فرفعت عينيها إلى السماء تدعو الله مشفقة راجية!

وبّث العدوّ سراياه بين الكهوف والوديان يطلب أثره ويلتمس غِرّته، وراحت الدبابات تطأ الأخبية وتجوس خلال الديار، وحلقت الطيارات تقذف اللهب وترمي بالصواعق، ومضت الكتائب المكتَّبة تحاصر القرى وتقطع الطريق؛ وانكشف المخبأ، ونشبت المعركة في ضوء الصبح؛ وكان ما لابد

أن يكون، وأمعن العدوّ قتلاً ومُثله حتى بلغ مبلغه؛ وتبدد الجيش الصغير الباسل وتقسمته بطونُ الأرض أشلاءَ وجماجم...

وحلقت طيارات الجيش الظافر ترسل تحيتها إلى القرى المغلوبة قذائف من جماجم بنيها الشهداء؛ وليس الحدادَ شعب بأسره؛ وأحدثت (بدرية) على فتاها كما أحدِّت على أبيها وأهلها من قبل!

وفي بيت من الشَّعر إلى جانب الصحراء في غرب الإسكندرية، رأيت بدرية منذ ثلاث سنين...

كنت أصطاف يومئذ هناك، وكان بيتها على مقربة، فإنها لتغدو عليّ وتروح كل يوم لحاجتها بين السوق والبيت؟ فأراها...

لم أكن أعرف شيئا عن ماضيها، ولم يحدثني أحد بخبرها وإنها لواحدة من كثيرات من الأعراب قد ضربن خيامهن هناك؛ ولكن مرآها كان يثير في نفسي فضولاً عجيباً؛ فما أكاد ألحظها قادمة من بعيد حتى تطيف بي خواطر وأسئلة لا أجد في نفسي جوابها؛ فأتبعها عيني حتى تغيب...

كانت بزيَّها، وعينيها، وشفتيها المطبقتين أبداً على ابتسامتها العابسة - تماثلاً صامتاً يرمز إلى أبلغ معاني الوحشة واليأس والحرمان، حتى لا يملك من يراها إلا أن يتخشع

ويصمت؛ وكان لها جمال، وفي عينيها وداعة، وعلى جبينها طهر؛ وعلى أنها فيما تبدو لمن يراها جاوزت الأربعين فقد كان لها روح الطفل وخفته.

. . . وعرفتُ خبرها من بعد، فأعظمتُ وفاءها، ورثيت لها.

لقد مضت بضع عشر سنة، منذ تلك الليلة التي خلَّفها راجح ومضى لأمره، يحاول أن يثأر لقومه؛ ولكنها ما تزال بعدُ كأنها منه على ميعاد، وكأنما كان ما كان منذ أيام. لم يزدها مرُّ السنين وحادثاتُ الليالي، وفراقُ الوطن، إلا وفاءً لذكراه.

وجَلَتْ عن أرضها مكرهة فيمن جلا من عمومتها وبني أبيها، ولكن قلبها بقي هناك، حيث وقفت لآخر مرة تُتبعه عينيها وهو ماض لأمره تلفُّه ريح الصحراء في الليل القر!

وقنعتْ بذكراه عن الأمل في لقياه منذ جاءها النبأ الفاجع! ونذرت نفسها للوفاء بعهده، فلم تتزوج، ولم تخلع الحداد! ونسيتْ ما كان من ماضيها ومن أيامها، إلا صورته وذكراه! وتأيَّمت العذراء ولما تخلعْ أبراد الشباب!

وكانت بدرية في فراشها حين دوّتْ صفارةُ الإنذار لأول مرة في الإسكندرية، تنذر أهلها ليأخذوا أهبتهم للكفاح؛ وأشرق الصبح وقد هجر المدينةَ نصفُ أهلها فراراً من الموت؛ فحملتْ بدرية متاعها ومضتْ مع الناس تلتمس سبيلاً إلى النجاة!

يا رحمتا للمسكينة مما يطاردها من أحداث الليالي!

وأعياها السير، فحطَتْ متاعها عن كاهلها وجلست تستريح على حيد الطريق، حين مر بها فوجٌ من الجند فمدّتْ عينيها تنظر...

ونظرتْ، فعرفت، فهتفت...

ولكن هتافها تلاشى في ضجة الناس وزحمة الطريق؛ ومضى الجند ومضت تعدو في آثارهم وتركت متاعها تتقاذفه أقدام السابلة...

وانقطع بها الطريق فما بلغتْ ولا بلغ صوتها إلى من يَسمع، وكأنما كانت تنادي مُنادياً من التاريخ يفصلها منه بضعة عشر عاماً من عمر الزمان!

وهامت المسكينة على وجهها ذاهلة لا تكاد تعي شيئاً مما ترى أو تسمع، ليس لها هدف فيما تسعى ولا غاية إلى ما تسير!

وأعيتْ بعد جهد فسقطت في الطريق لا حسٌّ ولا حركة ولا حياة؛ ثم أفاقت لتسأل نفسها ويسألها الناس فلا تجد الجواب!

وتتابعت على عينيها ذكريات الماضي يوماً يوماً منذ كانت حتى صارت؛ ونظرت يمنة ويسرة، ثم انطلقتْ تعدو..!

وعرفتْ بعد لأي أين تقصد، فمضت في طريقها...

. . . والتقى في خيمة الضابط المشرف على فرقة المتطوعين من أعراب الصحراء شخصان لم يلتقيا منذ بعض عشرة سنة، أما أحدهما ففتاة في الأربعين قد تقنعت بلفاع أسود حائل، وعليها ثوب أسود مرقوع، وترف على شفتيها ابتسامة لم تنفرج عن مثلها شفتاها منذ سنين. وأما الآخر فرجل أشمط مخدّد الوجه في جبينه شجّة ملمومة، يلبس حلة عسكرية وعلى رأسه طربوش بدوي غليظ يكبس أذنيه ويتدلى زره على قفاه. . .

وقالت الفتاة: راجح!. . .

وغصت بريقها وتسابقت بوادرها على خديها!

وقال الرجل: لم أكن أظن يا بدرية!

وكان الضابط جالساً إلى منضدة في صدر الخيمة يسمع وينظر ويبتسم ابتسامة الغبطة والرضا!

وعادة بدرية تقول: راجح. . .!

وربت راجح على كتفيها وهو يبتسم، وقال: لا تخشى بعد اليوم شيئاً يا بدرية؛ لن نفترق بعد؛ لقد دنا اليوم الذي أرتقب يا عزيزتي من زمان، لأغسل الدم بالدم، وأنتقم، فنعود أعزَّة إلى الوطن الذي أكرهنا على هجرانه، ويومئذ. . .

وطأطأت بدرية رأسها من حياء، واسترجعت أماني عاشت بها حيناً وعاش فتاها؛ وسرحا بأفكارهما إلى بعيد؛ إلى

حيث كانا يلتقيان كل مساء تحت ضوء القمر في ظلال النخيل القائمة على مقربة من بيوت الحي، يتساقيان ويتناجيان نجوى الشباب؛ وابتسم، وابتسمتْ. . .

ودوى بوق المعسكر يدعو فرقة المتطوعين من أعراب الصحراء إلى نَوبتهم في العمل؛ فهب راجح واقفاً ومضى إلى واجبه، تتبعه عينان تفيضان بالحب والحنان، ولسانٌ يخافِت بالنجوى والدعاء!

obeikan.com

عودة الماضي

خلَتْ (هُدَى) إلى نفسها تتدبّر أمرها وتزن ماضيها وحاضرها؛ كانت تشعر أنها قادمة على أمر ذي بال، وأنها الساعةَ في مرحلةٍ بين مرحلتين من حياتها، وثَمّةَ طريقان عليها أن تختار أيَّهما تسلك؛ فإما إلى سعادةٍ تُنسيها الماضي بما فيه من لذة ونشوة وسحر، وإما...

ولكنها لا تعرف السعادةَ إلا ما كانت فيه قَبل؛ فما هذا الجديد الذي يحاول أهلها أن يزيَّنوه لها ويحملوها عليه؟

الزواج! والبيت! والأسرة!

ما أجمل هذه الأسماء وألطفَ موقعَها من قلب كل فتاة! ولكن ما بال (هدَى) إذ تسمعها الساعةَ كأنما تَخِزها وخزَ السنان، فما تطرق أُذنَها إلا فارغةً من معناها أو معدولاً بها عنه، فليس لها في نفسها إلا معاني القلق والوحشة والحرمان!

أتراها وقد جاوزت العشرين لم تفكر في الزواج والبيت والأسرة قبل اليوم؟ بلى! ولكن...، ولو أن أحداً غير أبيها وأمها ألقى إليها هذه الكلمات قبْل، لكان لها معنى حقيقٌ بأن يسرَّها ويملأها سعادة ومرحاً؛ أعني لو أنه هو... ولكن، أين هو؟ وهل يدري...؟

وطارت خواطرها سريعاً إلى (ماجد) وتمثلتْه جالساً مجلسَه ينتظرها لموعدها الذي طالما التقيا فيه منذ سنواتٍ... يتلفّت ويمدْ عينيه يَتنورَّها قادمةً من بعيد، فيلقاها مبتسماً ويبسط لها يمينه!

آه: ماذا تُراه يفعل حين يبلغه النبأ، فيعرف أن (هدى) لن توافيه لموعده منذ اليوم، ولن تلقاه، ولن يراها؛ لأن حياةً جديدة قد باعدت بينهما فلا سبيل إلى اللقاء!

ورانت على عينيها غشاوة من الدمع، وتدحرجت على خذها عبره؛ أَمحى خياله من خيالها، ثم عاد، ورأته - كما نظرتْ في مرآتها - عابساً مقطِّباً، في جبينه ذلة المخذول وفي عينيه ذبول السهر ولهفة الحرمان!

وغلبتْها نفسُها فأرسلت عينيها، وأطرقتْ، وأصابعُها تعبث بمنديل بللته الدموع!

ورن جرس المِسرَّةَ، فهبْت واقفة كأنها من رنين الجرس على ميعاد، ثم ذكرتْ موقفَها، فقمعتْ في صدرها رغبة تختلج وعادت إلى مجلسها. لا ينبغي أن يسمع (ماجد) صوتها في المسرة بعد اليوم!

لم يَحسب ماجد وهدى حساباً لهذا اليوم من قبل، لوم يدُر في خاطر واحد منهما لحظة أن هذه الساعة آتية؛ لقد كانا من الحب في سكرة ذاهلة لا تدع لهما سبيلاً إلى الفكر

والتدبير وتَوَقُّع ما لم يقع بعد. . . وفجأة تغير الموقف وكان ما لا بد أن يكون؛ وطرق الباب طارق مجهول يطلب يد هدى. . .

. . . وسأل أبوها وتقصَّى أمرَه، فرضِيَه لفتاته، ولكنه تلبَّث حتى يسمع رأيها، وسألها فلم تُجب، وفزعت إلى خلوتها تتدبَّر أمرها وتزن ماضيها وحاضرها، وتبكي. . .

أكانت تبكي حُباً لماجد أم شفقة عليه؟ مَن يدري؟ ولكنها ظلت تبكي؛ وماذا تملك أن تفعل غير البكاء؟

أتُراه يعرف؟ يا ليت. . .! إنه هو وحده الذي يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة غير البكاء! لو أنه جاء الساعةَ يطلب يدها! إذن لاستطاعت أن يكون لها رأي، وأن يكون لرأيها اعتبار ومكان. . .!

ولكنه جالس مجلسه هناك، ينتظرها لموعدها؛ فَمَن له بأن يعرف؟ مَن له بأنه لن يرى هُدى بعدُ، ولن تراه؟

. . . أم تراه لو عرف يسرع إلى بابها فيزحم هذا الخاطبَ المجهول بما لَه من سَابقةٍ قريبة؛ فما مَنَعَه من ذلك قبلُ لو أنه كان يريد؟

. . . ومضت أيام قبل أن تعلن هدى رأيَها إلى أبيها؛ لقد حاولتْ في هذه الأيام أشياءً كثيرة ولكن محاولاتها جميعاً لم تستطيع أن تحمل فتاها على ما أرادتْ؛ ليت شعري أكان ذلك منه غباءً أم تغابياً؟

ولم تَجد الفتاةُ سبيلاً إلى الخلاص بعد، فرضيتْ!

لم تكن هدى من الغفلة بحيث تجهل أنها مقبلة على عهدٍ جديد ليس بينه وبين ماضيها سبب، وأن ذلك الماضي بما فيه من أماني وذكريات قد ذهب إلى غير رجعة؛ فإن هي لم تستطع أن تنزع من نفسها كل ما يربطها به، فقد ضلَّتْ وأَثِمتْ وبذلتْ ما لا تملك لمن لا يملك - فراحت من أول يوم تحاول أن تدفن ذلك الماضي في أعمق أغوار النسيان، فلا تدع سبباً يذكّرها به إلا أبعدته وعفَّتْ آثاره؛ فلا رسالة، ولا صورة، ولا جريدة فيها شيء من معناه أو معنى يتصل به إلا أحرقتها وأذْرَتْ رمادها، وحتى المخدع الذي كان يُلمّ بها طيفُه إذ تأوي إليه، لم تَدَعه في موضعه؛ والصورة التي تصوّرتها يوماً لتهديها إليه حين يطلبها - ولم يطلبها -، لم تُبقِ عليها؛ والمسرة التي طالما تحدث فيها إليها وتحدثت إليه في غفلة من أهلها وأهله، لم تحاولْ أن تمسك سمّاعتها بعدُ مرةً واحدة لتنادي أحداً أو تجيب نداء. . .

ولكن هدى مع كل ما فعلتْ وما غيرتْ من نظام حياتها كانت من أوهامها ووساوسها على حذر ورِقْبة، تخشى يوماً يستيقظ فيه ذلك الشبحُ الراقد في قلبها فيفسد عليها حياتها ويُزلّها!

وتركتْ ما كانت فيه من أسباب اللهو ومتاع الشباب إلى الصلاة والعبادة، لعل الله أن يجدد لها السعادة ويهب لها

السلوان؛ وجلست في مُصَلاَّها ورفعتْ يدين ضارعتين إلى الله تدعو: (يا ربّ! هذه طاقتي فيما أملك؛ فجنِّبني الإثم والخطأ فيما لا أملك!)

ولما حُدِّد يومُ العُرس بعد أيام، رَجَتْ أباها وخطيبَها أن يَنْسآ الأجل؛ فما تريد أن تذهب إلى زوجها إلا فارغة القلب له، مغسولة الصفحة من ذكريات الماضي جميعاً!...

وجلست هدى إلى خطيبها وجلس إليها، ورأتْ فتى يستحق الحبَّ لو أنها تملكه؛ فمنحته الاحترام والطاعة!

وكثر لقاؤها خطيبَها، وطالت مجالسهما وطابت. وخلا إليها ذات مساء يحدثها وتحدثه، ومضى الحديثُ فنوناً، وكشف لها عن صدره ووضع بين يديها أمانيه؛ ونظر إليها بعينين صافيتين فيهما طهر وبراءة، ونظرت إليه فأغضَتْ من حياءٍ، ونهضت معتذرة فأوت إلى مخدعها تبكي!

أرأيت دموع الندم في عيني فتاة قط!

لكأنما كانت تحاول أن تغسل بالدموع سرّاً أطلَّ عليه من عينيها حين نظرتْ ونظر، فلم ترقأ دمعتُها ليلتئذ!

ولما جلست إليه في الزورة التالية بعد أيام، حاولتْ أن تقول شيئاً ثم أمسكتْ؛ قلد خُيِّل للمسكينة أنها تستطيع أن تَتَخفّف من وقر ذلك الماضي الذي تثقل ذكراه على ضميرها لو باحتْ به بين يديه؛ ولكنها لم تقدر، فسكتتْ على ألم!

وراحت الأيام تدنيهما قلباً إلى قلب وروحاً إلى روح حتى صفا الود بينهما، وتراءيا نفساً لنفس، وكشفت لها الأيام منه كنواً من الإخلاص والوفاء والرجولة؛ فمنحته الإعجاب إلى الاحترام والطاعة!

وأخذ الماضي يتلاشى من خيالها ويستتر في حجاب وراء حجاب من فضائل خطيبها، حتى نسيت؛ فلم يعد شيء من ذلك الماضي يلم بها أو يخطر لها، وأتست إلى حاضرها وسعدت به!

وصحبتْ زوجها إلى داره، والتقيا روحاً وجسداً وعاطفة، وثابت نفسها إلى الاطمئنان والرضى؛ فراحت تبذل لزوجها ما تستطيع أن تبذل وراح زوجها يبذل لها، ورفرف طائر السعادة على عشهما يغرِّد ألحانه. ومضى عام، وصار الاثنان ثلاثة؛ واجتمع شمل الأسرة السعيدة على الوفاء والحب والإيثار؛ وكما يشرق الصبح في أعقاب ليل داج فيغسل ظلماته بفيض من النور ويمسح على وجه السماء فإذا هي مشرقة تتألق - كذلك كان حاضرها من ماضيها، وتلفَّف الماضي في أكفانه ودفنته الأيام في أعمق أغوار النسيان!

ثم كان مساء، وكانت هدى تسابق طفلها في شارع خالٍ على شط النيل حين برز لها شبح فألقى ظلاله في طريقها ثم تراءى لها. وانبعث الماضي إنساناً حياً يحدق في وجهها بعينين

فيهما ظمأ وجوع، وانطوى الزمان فكأن ما مر من سِنيه لم يكن إلا خفقة طرف سافرت فيها النفس ثم آبت؛ وطفت الذكريات الراسبة في أعمق الأغوار بسمات على الشفاه تختلج وتناجياً في العيون تتلاحظ؛ وهتف ماجد في هَمس: هُدى!

وهمَّتْ هدى أن تجيب النداء فما أطاقت، ورانت على عينيها غشاوة من الدمع، ودار رأسها فأوشكت أن تسقط، فاستندت إلى جذع شجرة قائمة وأغمضت عينيها، وتعاقبت على الواعية الباطنة صورٌ وذكريات، وخيل إليها أن أصواتاً كثيرة تهتف بها، وأن متكلما يتكلم ويسأل ويجيب ولا سميع، وأفاقت على صوت ناعم يناديها ويجذب ثوبها: ماما! ماما! أنا سبقتك!

وانحنت على طفلها فحملته بين ذراعيها وكرت راجعة، وأوت إلى مخدعها تبكي!

وكعهدها في ليلةٍ منذ سنوات - كانت في تلك الليلة؛ وخلت إلى نفسها تتدبر أمرها وتزن ماضيها وحاضرها؛ وشعرت كما شعرت مرة من قبل، أنها قادمة على أمر ذي بال، وأنها الساعة في مرحلة بين مرحلتين من حياتها؛ ولكنها هذه المرة لم تكن في شك من الطريق الذي ينبغي أن تسلكه وإن كانت تطأ فيه الشوك وتدوس على الجمر!

ودنا الطفل من أمه وعلى شفتيه كلمة صامتة وفي عينيه سؤال...

ومدت أمه إليه يداً فضمته إلى صدرها وانحنت عليه وراحت تبكي بلا دموع!

(يا ولدي!...)

ولم تتم حديثها! ترى بماذا كانت تريد أن تحدث طفلها؟ أتراها كانت تريد أن تتخفف من ثقل يئودها فتفضي إليه بالسر الذي عجزت من الإفضاء به إلى أبيه...

وذكرت الرجل الذي وضع أمانيه بين يديها وأخلص لها؛ لقد منحته من نفسها الاحترام والطاعة حين عجزت أن تمنحه الحب؛ ولقد خُيل إليها في فترة من حياتها أنها تحبه؛ فما بالها اليوم قد صبأت حين ذكرت ذلك الماضي الذي كانت تظنه قد غاب في مَدْرَجة النسيان؟

وتعاقبت الأيام، وهُدى من داء قلبها في همٍّ واصب، والزوج يرى ويحس ولا يكاد يدري، والطفل يذبل ويذوي عوده؛ إذ كانت أمه في شغل عنه بما تصارع في نفسها مِن هم!

وعاد الزوج إلى الدار ذات مساء ومعه ضيف... وكان الماضي طيفاً يُلمّ فعاد ضيفاً يزور!

واستقبلته هدى بشعور بين الأنس والوحشة، واتخذت مجلسها بإزاء الرجلين اللذين فرض عليها القدر أن تكون منهما بين شِقَّي مقصَ لا يجتمعان إلا على فرقة وشتات!

ونهض الزوج لبعض شأنه، فهمَّت أن تلحقه حين ناداها ماجد، ونظر إليها ونظرتْ؛ وكان في عينيه نظرة ضارعةٌ، وفي عينيها نظرةُ تساؤل، وتحركت شفتاه هامساً: (هدى! لقد التقينا أخيراً...)

وفي نبرة صارمة متكبرة أجابته ووجهها إلى الباب: (خيرٌ ألا تعود...!)

ولما خلت إلى نفسها بعدُ ومَثَلَتْ صورته في خيالها، كان رجلاً لآخر غير مَن كان؛ بلى، إنها كانت تحبه، وكانت تحفظ له في أعماقها أجملَ الذكرى، ولكنها لم تعرفه على حقيقته إلا الساعة؛ لقد كانت له يوماً بقلبها وعواطفها تحفظ له غَيْبَه ومَشْهده؛ فما له يحاول اليومَ أن يكون له منها غَيْب ومشهد؟ أتراه لم يصحب زوجها إلى داره إلا ليقول لها في همس:

(هدى! لقد التقينا أخيراً...) أم تراه يحاول أن يُزِلَّها بالمكر والخديعة لتمنحه في غفلةٍ من زوجها بعضَ ما لا تملك!

ونبذتْهُ مذ عرفتْه وسقط من حسابها، وتحطم التمثالُ الجميل الذي أقامتْه في قلبها تقدْسه وتتعبّد له؛ ومحت كلمةٌ

من شفتيه ما لم تمحه السنون من ذكريات الماضي فصار هباءً وعاد كما بدا!

ووازنتْ بين رجلٍ ورجل فشالت موازينُ ورجعتْ موازين، وانجابت الغشاوة عن عينيها فبعد لأيّ ما أبصرتْ، وعرفتْ...

... وشيعه زوجها إلى الباب وقفل إليها كأنه عائد من سفر طويل، ودفنت وجهها في صدره لتذرف آخر دمعةٍ على الماضي الذي ذهب ولن يعود؛ ورفعت إليه عينين مخضلَّتين بالدمع وعلى شفتيها كلمة حب لم يسمعها قط ولم تقلها منذ أظلمها سقف.

وكأنما كان قلبها في سجنٍ فحطّم أقفالَه وانطلق، وبدأ الحب يكتب تاريخاً جديداً في صفحة بيضاء!

obeikan.com

رجلان وامرأتان

لم يكن من طبيعتها الزهو والمباهاة، ولكنها تشعر الليلةَ بين لِداتها وصواحبها أنها قد بلغت مرتبةً من حقها أن تُزْهي بها وتفتخر؛ إنها خطيبة (سامي)، وهذا خاتم الخطبة في إصبعها يزهو ويتألَّق شعاعه؛ وأي صواحبها لم تعرف (سامي) أو تسمح به، وإنه من الشهرة وذيوع الصيت حديثُ كل فتى ونجوى كل فتاة!

وراحت (رشيدة) تخطر بين رفيقاتها تتقبل التهاني وتوزّع الابتسامات مغتبطةً سعيدة، لا تكاد تستقر على مقعد من خفة الفرح ونشوة المسرة...

... ثم انفضَّ السامر وخلت (رشيدة) إلى نفسها تحلم بما كان وبما يكون، وتتهيأ لليوم السعيد المنتظَر!

فتى في ربيع العمر، لم يفتنه الشباب ولم يبطره الغنى، تنوَّر أملاً بعيداً فمضى يشق الطريق إليه في عزم وقوة، وبلغ؛ وبرز اسمه في الطليعة من أدباء الجيل ولم يزل في أول الطريق، وذاع اسمه كما ينفذ شعاع الصبح فتكتحل كلُّ عين من نوره ويصحو كل نعسان؛ وشدَت القمارِيّ بأغانيه في الرياض، وهتفتْ بها العذاري، وتغنَّى الفِتيان...

. . . ودُق الجرس ذات مساء في دار رشيدة، وجاء سامي يخطبها. . .، وتوافد لِداتها وصواحبها يهنئنها ويتمنين لها. . .

. . . وراحتْ تتخيَّل نفسها إلى جانبه يمشيان ذراعاً إلى ذراع تحدِّثه ويصغي لها، والناس تهتف باسمها واسمه، والعيون تتبعهما حيث يتنقلان من روضٍ إلى روضٍ في طريق مفروش بالزهر، والأصابع تشير إليهما في همس: أئنه لَهُوَ، وإنها.

ولذَّها الحُلمُ السعيد، فطارت بغير جناح تحلّق في وادي المنى سكرَى!

وتابعتْ على عينيها صُور؛ وأفاقتْ من سكرتها مذعورة لصورةٍ عَرَضَتْ؛ وتخيَّلتْه يحفّ به فتياتٌ يسألْنه ويجيب وفي عيونهن معانٍ وفي عينيه معنى؛ ولذعتها نار الغيرة وساورها القلق، وراحت تسأل نفسها: أتُراه - وهو مَن هو - لم يفتح قلبَه لفتاة قبلها ولن يفتحه؟ فكيف، ومِن أين لها، وإن اسمه لحديثٌ على الشفاه ونجوى في القلوب!. . . أم تراه يخلص لها فلا يغلبها على قلبه أحد؟

وابيضّتْ ذؤابة الليل وما تزال أحلامُ اليقظة تُراوح بيم جنبيها في الفراش!

ومضت ليال، وأَنِستْ رشيدةُ إلى فتاها وأَنِس بها؛ وتتابع اللقاء بينهما في الحلم حيناً وفي اليقظة؛ وتكاشفَا نفساً لنفس فاطمأنَّت وزال ما كان يساورها مِن هم، واسترسلت في

أحلام السعادة والمجد، وهي تحصي ما بقي من أيامها حتى يكون لها.

وجاء اليوم الموعود وزُفَّتْ رشيدةُ إلى سامي...

(يا هَنَاها!)

ذاك حديث كل صواحبها؛ أفتراها كانت تسمع ما يتحدَّثن؟

أما هو فكان من شأنه في شغل عما يتحدث الناس؛ لقد وجد الاستقرار والراحة منذ وجد رشيدة؛ فانصرف إلى غايته دائباً لا يشغله من شئون الحياة إلا فنُّه والأمل الذي يتتوّره على مبعدة.

وأما هي... أين هي من أحلامها التي كانت تداعبها في اليقظة وُتِلمُّ بها في المنام؟

هذا عام مضى منذ دخل سامي في حياتها وشاركته في داره؛ فماذا تحقق من أمانيها وماذا بقي؟ وماذا يجدي عليها صيتُه ومجدُه وشهرته وإنها لحبيسة الدار لا تتحدث إلى أحد ولا يتحدث إليها أحد؛ وزوجها الذي خلق لها دنيا عريضة من الأوهام والأماني حبيسٌ في غرفته مكبٌّ على أوراقه ودفاتره!

هذه الصحف التي تتحدث عنه، وهذه الكتب التي تصدر باسمه، وهذه الجماعات التي تدعو دعوته وتُشيد به... كل هذه أوهام وخداع وتلبيس على الحقيقة. لقد حسبتْ يوماً

أنها ستكون أسعدَ زوجةٍ فيمن تعرف من صواحبها؛ لأن هذه أوهام المكتوبة كانت تُخيَّل لها وتخدعها عن الحقيقة؛ أما اليوم، وا أسفا!

إنه ليحبها وإنها... نعم، لقد كانت تحبه؛ ما في ذلك شك؛ أما اليوم... آه! ليتها تستطيع أن تقول... ليتها تستطيع أن تعرف...!

إنها لتحس في بعض الأحايين أنها تكرهه، شوقاً إليه!... ليت شعري، ما الحب؟ وما البغض؟... أهُما معنيان متناقضان أم هما اسمان لمعنى؟

وما الحقيقة؟ أهي شيء واحدٌ أم شيئان، ولونٌ واحدٌ أم ألوان؟

إنه هو هو، وإنها هي هي؛ لم يتغير شيءٌ منها ولم يتغير شيءٌ منه؛ ولم يَزَلْ هو كلَّ شيء في حياتها ولم تزَلْ؛ وهذه الأشياء التي كانت تحببه إليها يوماً هي هي التي تيغَّضه إليها اليوم.

إن الباطل الصُّراح أحبُّ إلى النفس من الحقيقة المتلوِّنة!

واحتوشتها الأفكار فلم تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع؛ فأطرقت، وأرسلت عينيها؛ وكان سامي في غرفتي يكتب ويؤلف!

. . . وفـرغ مـن موضـوعه بعـد هـدأة مـن الليـل، فرفـع أوراقـه بين عينيـه والمصباح وراح يقرأ، وأعجبـه عملـه؛ فهتـف: رشيدة، تعالي اسمعي!

ومـاذا يجـدي عليـه رضـا النـاس إن لـم تـرض رشـيدة؟ ولكـن رشـيدة كانـت مطويـة على نفسـها في الفـراش تبكي؛ ودنـا منهـا، فجفَّفـتْ دموعهـا واعتلّـتْ؛ وجلـس على حافـة الفـراش محزوناً أسـوان يسألها عن علتها؛ وما كانت علتها غيره!

وطوى أوراقه صامتاً، وأوى إلى الفراش منكسراً ذليلاً؛ وأصبح كما يصبح كل يوم وكما أمسى؛ وأصبحت كما أمستْ!

وجـاءت صـديقتها (سـعاد) لزيارتهـا؛ ومـا زارتهـا في بيـت زوجهـا قـط؛ وخلـت رشـيدة إلى صـديقة صباها تحدثها وتسـتمع إليها، وخلا سامي إلى نفسه يعمل. . .

وقالـت سـعاد: وإنـي لأسـمع عنـك وأعـرف، فيسـرني هناؤك. . . وإنك لحقيقة أن تسعدي بسامي. . .!

وابتسمت رشيدة وسكتت!

ونهضت الزائرةُ فشيَّعتها صديقتها على ميعاد

وذهبتْ رشـيدة لتردَ الزيارة لصاحبتها؛ ولقيتْها سـعادُ في غلائلَ وشـفوفٍ وَجلْوةِ عروس، وأحسـنتْ اسـتقبالها؛ ثم وَدَعَتْها لحظـة لتِسـرَّ إلى زوجهـا حـديثاً وعـادت، وأحسـت رشـيدة أن

صديقتها في شغل؛ فأوجزت، وسألتها: أرجو ألا يكون في زيارتي ما يشغلك عن شيء!

وابتسمت سعاد وأجابت: ليس شيئاً ذا بال؛ كنا علي أن نشاهد رواية في السينما، فطلبتُ إليه أن يذهب وحده إذا أراد! لقد شاهدناها مرة منذ يومين!

وغمغمت رشيدة بكلام، ثم أطرقت؛ أتراها كانت تحدَّث نفسها أو تحدِّثُ مضيفتها، وماذا همَّتْ أن تقول؟

وخفَّفتْ فنهضتْ، وفي قلبها حسرة، وفي صدرها غيرة، وفي رأسها فكر!

وقالت سعاد لزوجها وقد ذهبت رشيدة: (زوجة ساميّ!)

واستطردت: (إنها صديقتي منذ الطفولة! ألا تقرأ له؟ قل لي: لماذا لا تحاول أنت...؟ إن له مستقبلاً عظيما! لقد بَلغ.. هل سمعْت.. وله جاهٌ وشفاعة... إنني ورشيدة صديقتان، لم نفترق منذ كنا، حتى تزوَّجتْ، وخطبّها على غفلة...!)

... وأدارتْ رشيدةُ مفتاح المذياع وجلستْ مرتفقةَ إليه تنتظر؛ إن زوجها هناك؛ وما بها شوق إلى أن تستمع إليه، لولا أن صوته في المذياع يردُّها لحظاتٍ إلى ماضيها، أيام كانت في بيت أبيها مُسَّماة عليه؛ تلك أيام خَلَتْ؛ وكان صوته يلذها

ويبعث فيها نشوة... أوه! أين اليقظة من الحلم؟ أَكُتِبَ علينا ألا نرى السعادة إلا طيفاً في المنام أو حُلماً في اليقظة؟

وتَسرّحت رشيدةُ في أوهامها...

...وكأنما أحسّ سامي من رشيدة فتوراً وانقباضاً، فأهمَّه ما أحسّ، وراح يحاول أن يصلح ما بينه وبينها، وعطف عليها يسألها في رقة: ماذا بك يا رشيدة؟

وانفجرت رشيدة غاضبة ضاخبة، وكشفت الحجاب، ونفضت عليه ما تكظم من الغيظ منذ عام؛ وطأطأ رأسه يوازن ويقدّر ويحكم؛ وبدت له الحقيقة سافرة وانكشف عنها غطاؤها؛ وآثرها بالرَّضا فقدَّم لها معاذيرَه!

وتغير سامي منذ اليوم، فأغلق دار كتبه واقبل على زوجته؛ وفي المساء كانا يمشيان ذراعاً إلى ذارع في الطريق على أعين الناس؛ وصحبها إلى السيما، وسهرا معاً في الأوبرا، وتعشَّى معها في مطعم؛ وراقصها على نغمات الموسيقى في الحديقة، وعاد معها إلى الدار مخمورا قبيل الصباح!

وعرف سامي منذ الليلة أن في الحياة ألواناً من اللذة لم يذقها بعدُ وقد أوشك شبابهُ؛ فاشتهى وتمنَّى...

وفاءت رشيدةُ إلى الرضا وسَرَّتها حياتها الجديدة فطلبت المزيد!

وكانا يمشيان على ضفاف النيل حين اعترض سبيلهما سربٌ من الحسان. وقالت إحداهنّ وأومأت إلى سامي: أئنه لَهُو!

فأحنى رأسه مبتسما وأتبعها عينيه؛ وأغضتْ زوجتُه!

ولم تجد رشيدة من نفسها في الليلة التالية رغبة في الخروج؛ فخلفها في الدار ومضى وحده؛ وأشرقت الشمس قبل أن يعود، وهَّمت زوجته أن تتكلم فتركها وما تريد ومضى إلى فراشه...

وعرف عنوانَه من لم يكن يعرف من عشاق أدبه؛ فكثر زائروه وزائراته؛ وراح يقتضي الناسَ ثمنَ إعجابهم بفنه لذائذَ وشهوات...

وتدحرجت الكرةُ على المنحدر المائل واستمرتْ تهوي...

... وجاءت سعاد لتزور صديقتها، وقالت: أين سامي؟ منذ بعيد لم نسمع ولم نقرأ...!

وابتسمت رشيدةُ وسكتتْ؛ شأنها في يوم مضى؛ ثم أطرقت وعضت على شفتيها تحاول أن تحبس زفرة ألم!

ونهضتْ الزائرة وخلت رشيدة إلى نفسها تبكي؛ وَخيِّلتْ لها أمانيها أنه هناك، في غرفته، يكتب ويؤلف، وأنه يوشك أن يفرغ من موضوعه فيهتف بها: رشيدة! تعالي اسمعي! كما كان في ليلة منذ ليال!... ولكنه لم يفعل، لأنه ليس هناك!.....

.....

. . . ثم استيقظت وهي مرتفقة إلى المذياع، ورنّ صوته في مسمعيها قادماً من بعيد، صوت ندي رطب، يتحدث في وداعة ولين. لم يكن حديثه إليها، ولكنها وجدت بَرْدَه على قلبها، فدمعتْ عيناها فرحانة؛ وهتفت: سامي! عُدْ إليْ!

ولم يسمع نداءها، ولكن خاتمة حديثه في المذياع كان جواب النداء. . .

obeikan.com

آخر الطريق

على الضفة اليمنى من (بحر شبين) كان يقوم القصر الأبيض، كما يسميه أهل القرية والقرى المجاورة؛ وهو بيت مبني على طراز بيوت المدن، تفصل بينه وبين الطريق العام حديقة كبيرة تحنو على حوافيها أشجار ذات ظلال وأريج.

في هذا القصر كان يقيم (عبد الرحمن بك) وهو ضابط من ضباط الجيش القدماء، له ماض مجيد ووقائع مشهورة؛ فلما أسَنَّ وقعَد، هجر المدينة إلى الريف الهادئ، فاتخذ له بيتاً ومزرعة، وأقام حيث بنى القصر البيض في عز وجاه ومتعة.

وكان له ولد واحد أتاه على حين كبرة وهرم، فنشأ في الريف نشأة أهله، وتشرَّب من طباعهم وعاداتهم المأثورة؛ فلما بلغ السابعة بعث به أبوه إلى المدينة؛ فشدا من العلم ما شدا، ثم عاد ليقيم بجانب أبيه ويقوم على شئون مزرعته.

... لم يكن في القرية كلها، وفي القرى المجاورة، فتى أعزُّ على أهله وعلى جيرانه من (عايد) بن عبد الرحمن بك؛ فإنه لفتى ريّان العود، ناضر الشباب، فيه دمائه الحَضَريَّ المتبَدِّي وشهامة القروي المتحِّضر، وإنه لوحيد أبيه وصاحب أمرِه، وأبوة سيِّد القرية العزيز الممتَّع.

وكان (عابد) في السابعة عشرة من عمره حين التقى بأمينة عيناً لعين، فوقع من نفسها ووقعتْ من نفسه؛ وكان جالساً في خُصٍّ إلى جانب من مزرعة أبيه حين مرَّت بن لأول مرة فأتبعها عينيه مأخوذاً، ومضت على وجهها مغضية من حياء، وهي تتمتم بالتحية. وابتدأ للحب تاريخ...

لم يكن أبو (أمينة) من ضباط الجيش القدماء؛ نعم، ولا كان له تاريخ ووقائع يباهي بها ويفتخر؛ ولا كان يملك قصراً ومزرعة؛ ولكن أمينة على ذلك قد استطاعت أن تغلب الفتى على نفسه وتملك قِيادَه...

ولما التقيا بعدُ على غفلة من العيون في ظل شجرة الصفصاف، والشمس تنفض آخر أشعتها على أوراق الشجر حمراء ملتهبة، نظر إليها ونظرتْ إليه، وكانت شفتها تختلج وفي عينيها عبرة؛ ودنا منها ومد إليها يداً وامتدَّت يداها إليه ترُدُّه، وهمستْ: (عابد!) وبرقت قطراتُ الدمع بين أهدابها؛ وتحدثتْ عينان إلى عينين؟ وأرخى الليل سدوله وما تزال أمينة في مجلسها وما يزال عابد؛ ثم نهضا فاتخذا طريقهما إلى القرية صامتين يتبادلان لمسة باليد كلما همَّتْ أن تجتاز قناة في طريقهما بين الحقول، يهم أن يعنها وتهم أن تستعينه؛ ثم افترقا قبل أن يبلغا أول أبيات القرية وما سألها ولا أجابت! وأوت أمينة إلى منامتها بجانب أخيها الصغير في دار أبيها يراوح القلق

بين جنبيها، واتخذ عابد مقعده إلى جانب النافذة في غرفته من القصر الأبيض، يسرّح عينيه في الفضاء المظلم الذي يغلّف دور القرويين ويلفُّها في صمت موحش؛ وأشرق الصبح وما تزال وما يزال!

كان عابد يعلم من نفسه ما يعلم الناس، أنه سيّد نفسه، وأنه من المنزلة عند أبيه بحيث يحق له أن يتمنى وأن ينال؛ ولكنه إلى ذلك كان يشعر في أعماقه أن القدر يتربص به ليحول بينه وبين أعز أمانيه؛ أتراه يستطيع أن يقول ويكشف عن ذات نفسه؟ وماذا يقول أبوه ويقول الناس حين يصارحهم أنه يريد أن يتزوج أمينة؟

أمينة...؟ من تكون ومن يكون؟ هل هي إلا فتاة من فتيات يتمنين لو كن من خدم القصر الأبيض؟ نعم وإن أباها لواحد من عشرات يعيشون في ظل القصر الأبيض خَوَلاً وبطانة، إنه لسيد من يليه من الفلاحين ولكنه عبد وسيده، وإنه ليملك داراً وأفدنة كاسبة ولكنه مملوك؛ لأن القرية كلها ليس فيها إلا سيد واحد ومالك واحد...

كذلك كان عابد يفكر حين كانت أمينة راقدة في فراشها تفكر؛ وبكى الفتى حين تبين موقفه، وتمنى لو كان واحداً من سواد أهل القرية وله رأيه وإرادته، ولم يكن السيد العاجز. وبكت الفتاة حين تبينت موقفها وأعجزها أن تتمنى!

وقالت له: (سيدي. . .!)

وشد على يديها فلم يدعها تتمم، وقال: (أمينة. . .! ناديني باسمي يا حبيبتي! لست. . .)

ومال رأس على كتف، وامتزج الدمع بالدمع، وَتَرَوَّتْ الشفاهُ الظمأى، وتلاحقت أنفاس مبهورة؛ وهمت أن تقول، وهمّ أن يجيب، وماتت الكلمات على شفاه ترتجف، وتساءل قلب وأجاب قلب، وتلاشى الوجود بينهما فلا شيء هناك إلا اثنين يتناجيان بلا كلام، وهبَّتْ نسمة ندية فالتقى غصنان ثم افترقا، وتهامست زهرتان ثم أمسكتا، وأطلّت عينان من فرجة السحاب تختلسان النظر، وازدحمت العيون على فروج الخباء تنظر؛ ثم انقشع السحاب وبرز القمر؛ وانكشف السر المختبئ في ضمير الليل، ثم عاد فاستتر؛ وكان على الغصن قمْريةٌ تغني، وكان غناؤها خفقات قلبين يتهامسان.

. . . وقام يودِّعها وقامتْ، وأبتعها عينيه حتى واراها الظلام ثم قَفل وفي قلبه نجوى وفي عينيه بريق، وعلى شفتيه مَذَاق، وفي أذنيه رنين!

وتتابعت لياليهما حافلة بأسباب الهناء والمسرة في غفلة من العيون، لم يطلع على سرهما أحد إلا النجم والزهر وغِرِّيدة الشجر وطابت له الحياة وطابت لها، لولا حديث بينه وبين نفسه يؤرقه كلما جن الليل، ولولا وساوسها!

وأجمع رأيه على أمر؛ وكأنما كان المسكين يتعجَّل آخرةَ هنائه حين بدا له أن يكشف صدره لأمه ويستعينها. . .

وقالت أمه وفي عينيها دهشة وفي وجهها غضب: (أمينة! وأنت لها يا عابد!)

وهتف الفتى في يأس: (أمّي!)

ولكن أمه لم تجب، وأجابه أبوه؛ هل رأيت قطُّ قائداً في هيئته العسكرية قافلاً من معركة بنصف جنوده!

كذلك كان موقف عبد الرحمن بك من ولده في ذلك اليوم؛ وطأطأ الفتى رأسه يستمع إلى أبيه يحكم عليه باليأس والحرمان! ثم سقط على كرسيه باكياً ومضى أبوه إلى غرفته.

ولم يلتق عابد وأمينة منذ اليوم، وافترقا بلا وداع وما افترقا قطُّ إلا على ميعاد! ولزم الفتى غرفتَه مطويّاً على آلامه، لا يرى أحداً ولا يراه أحد؛ على حين كان ثلاثة نفر يعنيهم من أمره ما يشغلهم ليلَ نهار. . .

أما واحدةٌ فكان لها كل يوم مَغْدىً ومراح في مواعيدَ رتيبةٍ إلى شجرة الصفصاف القائمة على حافة الغدير، تتروّح عندها رَوْحَ الماضي في خفقة الغصن ورفة الزهر وأرج النسيم، ثم تروح وحيدةً دامعة العين!

وأما اثنان فرجلٌ وامرأة في خريف الحياة يتشاوران في أمر وحيدهما الذي يوشك أن يُضّله الحب عن رشاده فيهوي إلى عار الأبدّ!

أربعة أشقياء لو شاءوا لاستقامت لهم الحياة واستقاموا لها فسَعِدوا، وضعتْهم التقاليدُ بين شِقَّي رحىً طحون تشوك أن تحطمهم حطمة الموت فلا نجاة!

وضاق الفتى لنفسه وضاقت به، ولم يطق الصبر بعد، فأجمع أن يكون سيد نفسه فلا يسمع لقول أحد، وأعلن العصيان!

وتهالك أبوه في مقعده وطأطأ رأسه وجاشت نفسه بآلامه، وتحيرت دمعتان في عيني الرجل الذي لم يبك قط، ووقف الفتى رافع الرأس وفي عينيه بريق الإرادة الصارمة، ونظرت أمه إليه فأطالت النظر، ثم هتفت بضراعة: (عابد!)

وظل الفتى صامتاً لا تطرف عيناه، فلو أن القدر يتحدث بلسان أمه ما ثناه عما اعتزم!

وبلعت أمه ريقها وابتسمت، وأشرقت في وجهها مسحة هدوء ظاهر؛ ثم أردفت: (أجاد أنت يا عابد؟)

وضحك الفتى ساخراً، وأجاب: (نعم، ولا بد. . .!)

ووقفت الأم، ثم تقدمت في خطوات ثابتة حتى وضعت يدها على كتفه، وقالت في لهجة الأمر والثقة: (ذلك حقك يا عابد، ولكن... ولكنك لن تفعل!)

وابتعد الفتى مغضباً وهو يقول: (بل إنني سأفعل، سأفعل؛ سأتزوجها ولو...)

وقاطعته أمه: (... ولو كانت أختَك.....!)

وسكت عابد وجحظت عيناه مدهوشاً؛ واسترسلت أمه: (... بلى؛ أنها أختك يا عابد؛ لقد رضعتها من ثدي واحدة دهراً طويلاً يا بني من طفولتك؛ أتراك تريد أن تتزوج أختك يا عابد....؟!)

ودار رأسُ الفتى وأوشك أن يسقط، وتهاوى على كرسيه لا يكاد يعي، وغَشَّى عينيه الدمع...

وبدأ منذ اليوم تاريخ جديد، أما الفتى فراح يعالج نفسه بالصمت والوحدة لعله أن ينسى؛ ولكن صورتها ما برحت تتخايل لعينيه في فنون؛ لقد استطاع أن يقهر نفسه على السلوان ويسومها الرِّضا؛ ولكنه لم يستطع أن يتصامّ عن تأنيب الضمير ووخز الندم كلما تذكّر أن أمينة أختُه، وأنه نال منها ما لا ينال الأخ من أخته وترك لها خِزي الدهر وعار الأبد؛ فلا كان لها منه حِفاظُ الأخ ولا وفاء الحبيب!

هذا واحد؛ أما الأب والأم فراحا يدبران أمرهما قبل أن ينتفض غزلهما، وإنهما ليحسان حيناً بعد حين آلاماً مُرةً من قسوة ما نال وحيدهما العزيز المرجوّ؛ فذهبا يعدان العدة لتزويجه قبل أن ينتكس ويعاوده مرضُه!

وأما هي، أما هي فكانت بين مَغْداها ومراحها كل يوم إلى شجرة الصفصاف ما تزال تأمل أملاً، أملاً يلوح ويخفي كما يتراءى القمر بين قطع السحاب، ولكنه أمل يمسك عليها نفسها... وبلغها النبأ أخيراً وعرفتْ أن فتاها يوشك أن يتزوج؛ وارتكضت أحشاؤها تنبئها نبأ آخر...

وكانت القرية ساطعة الأنوار احتفالاً بعرس عابد، حين كانت أمينة تدرع الظلماء في طريق لا تعرف له غاية!

وأصبحت القرية بعد ليلة ساهرة تبحث عن أمينة فلم يعرف لها خبر؛ ولكن سرها ظل مكتوماً لم يطلع عليه أحد؛ لأن الثلاثة الذين يعرفونه لم يكن يسرهم أن يعرفه أحد!

وراح أبوها وذوو قرابتها يتقصَّصون الخبر ويتبعون الأثر؛ فلم يبلغوا إلى غاية؛ وذهب الناس في الحدْس مذاهب، ولكن أحداً منهم لم يبلغ من سوء الظن أن يتهم أمينة تنال من شرفها؛ إذ كانت عندهم فوق الظنون والريب؛ فاتهموا بها وَحْشَ الفلاة ومَوْجَ البحر ولم يتهموها؛ وأقاموا لها مأتماً وقرءوا لها القرآن!

وسمع عابد النبأ فعرف ما كان، وأقام مأتمها في قلبه ولم يزل صدى أغاني العرس في أذنيه!

لم يسعد عابد بزواجه كما رجا أهلهُ، ولم ينس؛ وعاش كما قُدِّر له، بين حُطام الأمل، ولوعة الذكرى، ولذْع الندم؛ صباحٌ ومساء، ونجم ينير ونجم يغور، والحياة هي الحياة إلا ما تُجدِّ له الذكرى من الألم وعذاب القلب ووخز الضمير!

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة، وما يزال عابد كعهده يوم كان؛ لم يغيره الشيبُ الباكرُ شيئاً ولم تقوَ الأيام أن تمحو آلامه؛ على أنه اليوم يعيش منفرداً في القصر الأبيض كما عاش منفرداً بآلامه منذ سنين؛ وقد آل إليه القصر والمزرعة بعد وفاة أبيه وأمه، وعقمت زوجُه فلم تقدر أن تمنحه الولد، كما عقمت من قبل فلم تقدر أن تمنحه الحب؛ وعاش وعاشت كما

يعيش الضيف في غير أهله، فليس بينهما شابكة من حب ترِّفه عنه، ولا رابطة من أمل تقرِّ بها إليه؛ فلولا هذه الخادمة الصغيرة التي ترعاه وتلبِي نداءه وتبسم له لكانت حياته جحيما لا طاقة عليها ولا صبر معها؛ وقد اصطفاها عابد لخدمته الخاصة منذ بعيد؛ فليس لها من عمل في القصر إلا خدمته والترفيه عنه وليس لأحد غيره عليها حق.

وكانت (زهيرة) الخادمة حقيقة بهذه المكانة من سيدها؛ فكانت صَموتاً مطيعة لا تسبق إلى عمل في غير وقته ولا تؤخره وكأنما صنعت لها روحها ابتسامتها الدائمة، فلا تُرى إلا ضاحكة السن، تطِلْ من عينيها نفس صريحة فيها بريق الإخلاص والحب تنشر حولها جوّاً من الرضا والطمأنينة!

لم يكن ذلك شعورَ عابد وحده، ولكنه كان شعور الكافة من أصدقائه القليلين الذين يزورونه في قصره؛ على أن أحداً منهم لم يبلغ به حُسْنُ الرأي في (زهيرة) أكثر من هذا الحدّ؛ بل إنها كانت موضع التهمة في أمانتها عند بعض خدم القصر. فكثيراً ما اختفت أشياء من أشياء سيدها لم تكن تبلغ إليها يد غير يد زهيرة؛ ولكن سيدها كان من حسن الظن بها بحيث تنال منه ما تشاء لو أنها أرادت؛ فكيف يتهمها بمنديل أو خاتم أو صورة تختفي ولو شاءت لمدت يديها من المال إلى ما تريد؟

وبلغت (زهيرة) سن الشباب ونضجت أنوثتها، وكان لها جمال خَلق إلى جمال العشْرة وحسن الخلق؛ وخلا عابد إلى بعض صحابته يوماً يُسِرْ إليه حديثاً؛ وأجفل صاحبه مذعوراً وهو يقول: (وتفعلها يا عابد؟)

وسكت عابد، ولكن نفسه كانت تحدثه حديثَها...

ولما خلا عابد إلى نفسه أطلق العنان لأفكاره وسرح...

(وماذا عليه لو تزوَّجَها؟ وماذا يهمه حديث الناس؟)

هكذا راح يسأل نفسه في خلوته؛ لقد أحب عابد فتاته؛ ذلك شعور يحسه في نفسه إحساساً لم يحس مثله منذ بضع عشرة سنة فماله وللناس؟ وماذا يضطره إلى أن يصانعهم ليشتري رضاهم بسعادة نفسه؟ أو ليس يكفيه ما بذل من شبابه وراحة قلبه من أجل الناس؟

ودعا عابد فتاته فلبَّت ووقفت بين يديه صامته تنتظر ما يأمر؛ ونظر الرجل إليها نظرة جمعتْ له الزمانَ في لحظة فكر؛ وكأنما خيل إليه أنه قد رجع القهقري إلى ماضيه مع أمينة يوم كان وكانت، وراحت الذكريات يمدّ بعضها بعضاً فتنشئ له أملاً وتبعث فيه نشوة؛ ووقف، وأراح على كتفها يداً ترتجف، وقال لها: (أمينة! أتقبلينني...!)

ورفعت إليه عينين فيهما حنان وحب، ثم أطرقتْ؛ وقالت: (سيدي!)

وكما سمعها مرة منذ بضع عشرة سنة من فم أمينة - طرقت مسمعيه الساعة؛ واستطردتْ: (لستُ لك يا سيدي، ولست لنفسي؛ إنني خادمتك!)

وانفلتت من بين يديه وذهبتْ. ومضت أيام قبل أن يعود إلى الحديث معها، وقالت: (سيدي!) وضمها إليه وهو يقول: (ناديني باسمي يا زهيرة؛ إنه أحبُّ إليّ!)

قالت: (ولكن لك اسماً آخر أحب إليّ؛ لقد أنبأتني أمي.!)

قال عابد: (أمك؟. . .)

قالت: (نعم، إنها أمي. . . أمينة؛ لقد أنبأتني أمس؛ لم أكن أعرف قبلها أن لي أباً، ولكني كنت أعرفه، وأحبه. . .!) وهوّتْ بين ذراعيه باكية!

وفي كوخٍ منفردٍ على حدود العمران، والشمس تنفض آخر أشعتها على أوراق الشجر حمراء ملتهبة، كان اثنان جالسين يتحدثان في همس، وثّمِة فتاة على مقربة تصغي إليهما في شوق ولهفة، تحاول أن تعرف قصةً بدأتْ قبل أن تولَد ولم تنته إلى نهايتها بعد. . .

. . . وقال عابد: (إذن فلم ترضْعني أمُّكِ كما زعموا؟)

قالت: (ومن أين لها وقد ماتتْ أمي قبل أن يُبْنَى القصر الأبيض، ومن أين لك؟ لقد خلفتني أمي قبل أن أتم الرضاع فلم ألقم ثدياً بعدها قطّ، وجاءت بك سيدتي وأنت غلام تسابق الفَراش بين نوَّار الحقل، وكنتُ أدعوك سيدي!)

فابتسم عابد وقال: (ولكنك لن تدعيني بهذا الاسم بعد؟)

ومال رأس على كتف، وامتزج دمع بدمع، وتروَّت شفاهٌ ظمأى؛ وتلاحقت أنفاس مبهورة، وهمت أن تقول، وهمَّ أن

يجيب، وماتت الكلمات على شفاه ترتجف؛ وتساءل قلب وأجاب قلب؛ وتلاشى الوجود بينهما فلا شيء هناك إلا اثنين يتناجيان بلا كلام. وهبت نسمة ندية فالتقى غصنان، وتهامست زهرتان، وأطلَّتْ عينان من فرجة السحاب تختلسان النظر، وازدحمت العيون على فروج الخباء تنظر؛ ثم انقشع السحاب وبرز القمر؛ وانكشف السر المختبئ في ضمير الليل...

واتخذا طريقهما إلى شجرة الصفصاف يجددان العهد ويبعثان الذكرى، مشيا صامتين يتبعهما ظلهما، ويتبادلان لمسة باليد كلما همَّتْ أن تجتاز قناة في طريقها بين الحقول، يهم أن يعينها وتهم أن تستعينه؛ وعاد الماضي كما بدأ؛ وتعاهدا لا يفترقان حتى يبلغا آخر الطريق؛ وعادى البهجة إلى القصر الأبيض، ورفَّ النور من شرفاته.

هَمَّام

عندما يهم قطار الصعيد أن يجتاز النيل من شاطئ إلى شاطئ عند قناطر نجع حمادى في طريقه إلى القاهرة - يرى الراكب عن يمينه قرية صغيرة يطيف بها الجبل الشرقي من ثلاث جهات ثم ينفرج عن سكة متعرجة تصل بين القرية والنهر، وتقوم على جوانبها باسقات النخل حداً فاصلاً بينها وبين الصحراء الشاسعة الممتدة بين النيل والبحر الأحمر

في هذه القرية كان يعيش (هَّمام) يكدح لنفسه ولزوجه عاملاً في مزرعة العمدة، كما يعيش عشرات مثله قانعين من العيش بالكفاف، راضين من متاع الحياة بنعمة الحياة نفسها!

ولكن هَّمام لم يكن من القناعة بحيث يرضى من الحياة بما يرضى سواد الفلاحين الذين يعملون معه أُجراء في مزرعة العمدة؛ فقد كانت له نفس طلعة تتسامى بها أماني جسام؛ وكان من المنزلة عند سيده بحيث يتهيأ له أن يكون أقرب إليه؛ فرأى ألواناً من العيش وفنوناً من اللذة خيلت له ما خيلت من الأوهام وأنشأت في نفسه ما أنشأت من المنى

ولم يكن قد مضى على زواجه (بمسعدة) غير بضعة أشهر حين جلس إليها ذات مساء يحدثها وتستمع إليه:

(مسعدة!. . . وسيكون لنا دار ونخيل، ومزرعة على الساحل إلى جانب مزرعة العمدة، وسأكون وتكونين. . .!)

واستمعت إليه زوجته فرحانة، وحلقت بجناحيه في وادي المنى، وراحت تعد له عدة الرحيل إلى القاهرة حيث يهاجر ليلتمس الغنى ثم يعود. . .

وخرج همام من القرية يحمل على كتفه خُرجاً فيه زاده ومتاعه حتى بلغ شاطئ النهر، وخلف زوجته في القرية تنتظر

وكان ثمة رمث من جرارٍ مشدودة عنقاً إلى عنق يتأهب لرحلة نهرية إلى القاهرة، فوضع همام متاعه عن كاهله وأتخذه مركباً إلى حيث ينشد أمانيه

وأرسى المركب بعد أيام على ساحل (الفسطاط)، فنزل هما يضرب في شوارع القاهرة ومتاعه على ظهره، حتى انتهى إلى مستقره في غرفة في دار في حي (بولاق) يساكنه فيها بضعة نفر قدموا لمثل غايته من بلاد متفرقة في الصعيد الأعلى فألفت بينهم الغربة وجمعتهم وحدة الأمل. ومضى يلتمس الرزق بساعدٍ قوي وعزم صليب، فلم يلبث أن انضم إلى جماعة من الفعلة في أعمال البناء، يمضي شطر نهاره يحمل مكتل الآجر صاعداً هابطاً على خشب مشدود من أسفل البناء إلى أعلاه ومن أعلاه إلى أسفله، ينضح العرق جبينه ولسانه لا يفتر عن الغناء، يصف أشجان الحبيب النازح إلى أمل يرجوه ومن خلفه

حبيب ينتظر؛ فإذا حميت الظهيرة فاء إلى ظل جدار قائم يتناول طعامه لقمة من خبز قديد وملح جريش وماء؛ ثم يستأنف عمله...

لم يكن العمل الذي يزاوله همام مما أَلِفَ حين كان يعيش بين أهله في القرية المطمئنة في أحضان الجبل الشرقي، ولكنه كان أحب إليه لأنه كان أكثر جدوى عليه. واستطاع أن يجمع من فضل أجرته بعد شهرين جنيهاً وبعض جنيه، أرسل منه ما أرسل إلى زوجته وادخر الباقي لنفسه، ودأب على ذلك من بعد؛ فكان لزوجته من فضل أجرته كل شهر نصيب معلوم، ولصندوق الادخار ما بقى... ولما جاءه النبأ أن زوجته قد وضعت، أرسل إليها بهدية وعلاوة تشتري بها كسوة للصبي، ولكنه لم يغفل أن يضع في صندوق الادخار ما يضع كل شهر، رجاء أن يكون له يوماً دار ونخيل، ومزرعة على الساحل إلى جانب مزرعة العمدة، هناك، حيث تنتظر زوجته وأم ولده...!

لقد مضى عام منذ هجر همام القرية يسعى إلى الغنى، وأنه هنا وزوجته هناك، وولده؛ أما هو فكان له شأن يشغله عن الفكر والحنين، وأما هي فكان لها أمل تأمله في يوم قريب - يربط على قلبها ويزيل وحشتها، وأما الصبي... وماذا يدري الصبي بعد؟

وتتابعت الأعوام وشب الغلام، لم ير أباه ولم يره أبوه؛ وماذا يهم الفتى من ذلك وليس بدعاً هناك، وفي كل قرية من قرى الصعيد العشرات من مثل همام نزحوا عن أهلهم وولدانهم يلتمسون مثل ما يسعى له، لا يتواعدون على لقاء ولا يتراءون منذ الشباب إلا على هرم...! ومضت بضع سنين، قبل أن يفكر همام في زيارة زوجته وولده؛ وراحت (مسعدة) تستقبله على شط النيل حيث ترسى به السفينة؛ وقال الفتى لأمه وهو يشير إلى رجال على ظهر المركب: أيهم هو؟ ونظر همام إلى غلمان وقوف على الشاطئ وقال لنفسه: أيهم هو؟... ثم التقيا فتعارفا وحن الدم إلى الدم...

... وعاد الزوجان إلى حديثهما، وعاد همام يقول: (بلى، وسيكون لنا دار ونخيل... وسيكون...) وهمت المرأة أن تقول شيئاً ثم سكتت، ورفعت إليه عينين فيهما ظمأ وشوق، وفيهما إعجاب وزهو، وأنستها حلاوة اللقاء مرارة الفراق، وعادت الأماني تخيل لها، وحلقت بجناحيه في واديه، وقالت لنفسها هامسة: (سيكون لنا دار ونخيل ومزرعة، وسيكون وأكون...) ثم فاءت تنظر إليه وفي عينيها لهفة وحنين!

... وقضى همام في القرية أياماً، ثم استأنف رحلته يسعى إلى أمله، وخلفها وخلف ولدين: أما أحدهما فغلام لم

يكد يرى أباه حتى فقده، وأما الثاني فإنه لم يره قط، لأنه لا يزال بينه وبين الحياة تسعة أشهر. . .!

لم يكن عبثاً ما تحمل همام من مشقة البعد سنين وما لقي من جهد الحياة؛ فلم يكد يمضي عليه في القاهرة بضع عشرة سنة حتى تغير من حال إلى حال؛ فلم يعد العامل الذي يمضي بياض نهاره حاملاً مكتل الآجر، صاعداً هابطاً على خشب مشدود بين السماء والأرض، ليس له إلا وجبة واحدة من طعام؛ إنه اليوم رجل غير من كان؛ لقد عاد ذلك الثوب الخلق جديداً على جسد ناعم، وعاد البطن الخاوي شبعان ريان من طيب الطعام والشراب، وعادت الغرفة المشتركة بين بضعة نفر يفترشون الأرض شقة ذات أثاث ورياش؛ وعاد الأجير الفقير سيّداً يجري النفقة على أجرائه وخوله؛ وتلاحقت دراهمه فنتجت وأصبح ذا مال!

وتصرمت بضع سنين لم تره زوجته ولم يرها، أما هي فعاشت هناك صابرة قانعة بما يرسل إليها كل شهر من نفقة، تمسي وتصبح حالمة بالدار النخيل والمزرعة، ويوم تكون ويكون؛ وأما هو، فتبدلت حياته بما تبدل من حال إلى حال، وأجدت له النعماء أماني فأنسته أماني، وعاش لنفسه وماله!

وشب الغلام وأخضر شاربه، ونهدت البنت وكعب ثدياها، وشابت الأم وتخدد لحمها، وما زال شاب قلبها يجد لها

أملاً بعد أمل، وينشئ لها في كل مشرق شمس ومغربها حنيناً ولهفة؛ والرجل هناك يبيع ويشتري ويتعوض ويراوح بين جنبيه من فراش إلى فراش!

وفجأةً أظلمت القاهرة بعد نور، وهمدت بعد نشاط، وسكنت بعد حركة، ونعب النذير يوقظ النائم ويحرك الساكن ويبدد الشمل المجتمع ليجمع الشمل المتفرق؛ وكسدت سوق همام بعد نفاق، فأزمع الغريب الإياب!

لم يعد همام في هذه المرة إلى القرية على رمث في البحر تدفعه الريح، ولم يكن على كتفه خرج فيه زاده ومتاعه، ولم تكن رحلته طويلة موحشة تقاس بالليالي والأيام؛ ولكنه عاد في القطار السريع يؤنسه أنيس غير مملول؛ في يمناه حقيبة سفره وفي يسراه زوجته الحضرية المصقولة! وكانت (مسعدة) وولداها ينتظرونه لميعاده،... ونظرت امرأة إلى امرأة ثم أغضتا؛ أما واحدة فصبرت وشكرت؛ لقد سلخت شبابها متزوجة ولا زوج لها، فإنها لنعمة أن تظفر اليوم بنصف زوج!.. وأما الأخرى فخنقت وسخطت؛ لقد كان لها زوج يؤثرها ففقدت نصفه!

وأغلق الباب على رجل وامرأتين؛ وعرفت كل واحدة منهما مكانها من صاحبتها ومن صاحبها؛ أما مسعدة فراحت تتجه إلى صاحبتها وتتعبد لها لتنال رضاها ورضا همام، وأما

صاحبتها فراحت تشمخ وتتأمر لتتسلط وتحظى؛ واقتسمت المرأتان الدار فواحدة لها الفراش وواحدة للمهنة والعمل؛ وقالت المرآة لكل منهما: لقد عرفت مكانك؟... ولكن أحظاهما كانت أسخط لحظها وأشقى؛ لأنها لم تألف الحياة في القرية ولم ترض الشركة في رجل...

وأصبح همام ذات صباح فإذا امرأة واحدة في الدار وقد فرت الأخرى... وثارت نخوة الرجل وغضب لعرضه غضبة أهله، فأزمع أمراً؛ وغضب الولد لأبيه وأقسم ليغسلن العار بالدم

... وعاد (حمدان) بن همام من القاهرة بعد أيام وسكينة يقطر دماً... وأستقبله أبوه مزهوا فخوراً فضمه إليه وقبل جبينه، واستقبلته أمه وأخته...

وجلست الأسرة الأربعة مجلسهم لأول مرة، مجلساً لم يجمعهم مثله منذ كانوا على صفاء ومودة، وقالت مسعدة: (همام!)

وكان في عينيها عتاب وفيهما رضاً واطمئنان

وقال همام: (مسعدة! معذرة إليك؛ إنك أنت وحدك... وكانت غلطة...!)

وابتسمت مسعدة وعاد الشباب يتألق في جبينها بشراً ومسرة، وانبعثت الأماني تحدثها حديثها، وحلقت بجناحين في وادي المنى، وقالت: (. . . ويكون لنا دار ونخيل، ومزرعة!)

وافترت شفتاه وقال: (ذلك أولى لك يا مسعدة وأنت له أهل؛ وهذا المال. . .)

ودق الباب وانقطع الحديث، ودخل الداخل ثم خرج، وخرج وراءه همام وزوجته وأبنته يشيعون حمدان وفي يديه الحديد مسوقاً إلى السجن!

لم يشتر همام داراً ولا نخيلاً، ولا مزرعة على الساحل؛ ولم يبق له من ماله باق، وأنفق ذخيرة العمر ليفتدي ولده من زلة ساعة فلم يُجد عليه!

وعاد همام كما بدا، أجيراً يكدح لنفسه وزوجته وأبنته عاملاً في مزرعة العمدة، قانعاً من العيش بالكفاف، راضياً من متاع الحياة بنعمة الحياة نفسها. . .

وخرج حمدان من السجن بعد عشر سنين لتستقبله أمه الأيم العجوز وحيدة فتصحبه إلى قبر أبيه يترحم عليه، أبوه الذي لم يره إلا مرةً ثم مضى كل منهما لوجهه، كما يلتقي اثنان اتفاقاً في طريق ثم يتدابران فلا لقاء!

ثمن الأمومة

في الطابق الرابع من الدار القائمة على حدود الصحراء من ضاحية حلوان، كانت تعيش (سنية) وحيدة: لا أم ولا أب، وزوج ولا ولد. لقد فارقها أبوها ولم تزل طفلة بعد، إلى حيث لا يرجع من يمضي؛ وفارقت هي أمها العجوز وأخاها، إلى حيث فرضت عليها (الوظيفة) أن تعيش غريبة منقطعة لتجد ما تعيش به. وما كان المرتب المحدود الذي تمنحها (وزارة المعارف) في كل شهر ليُسعد فتاة في مثل سنها، ولكنها كانت به راضية سعيدة. وقد استطاعت على امتداد الزمن أن تزيد دخلها بضعة جنيهات في كل شهر، مما تحصل عليه من أجرة الإشراف على بعض تلميذاتها في دراستهن المنزلية؛ فتهيأ لها بذلك أن تنظم ميزانيتها الصغيرة تنظيماً يكفل لها أن تستمر على إعانة أمها العجوز بما ترسل إليها في كل شهر، وأن تدّخر لنفسها شيئاً إلى شيء، ارتقاباً ليوم تأمله...

منذ بضع سنوات لم تغير سنية شيئاً من نظام حياتها ولم تحاول؛ هذا منزلها الذي تسكنه منذ هبطت المدينة، لم يتبدّل شيء منه ولم يتبدّل شيء منها؛ هنا الغرفة التي تأوي إليها إذا جنّ الليل؛ وهنا الثّوى الذي أعدته لاستقبال من يزورها فلم يطرقه زائر قط منذ كان؛ وهنا الشرفة التي ترتفق

إليها بذراعها كل مساء ساعة أو ساعات قبل أن تنام، تسرّح النظر في الفضاء الغارق في ضوء القمر، أو تنقل الطّرف بين النوافذ المضيئة قانعة في وحدتها الموحشة من سعادة الاجتماع بأنس النظر!... وهناك، على مد البصر، طفل يقفز ويثب؛ هذا هو حيث تراه كل مساء في مجلسها من الشرفة، جالساً بين أبويه أو عابثاً لاهياً يتوثب؛ إن بينها وبينه لسبباً قوياً؛ إنها لتحبه كأنها ولدته، وإنها لتفتقده إذا غاب كأنها بعض أهله، وإنها لتتحدث إليه على البعد كأنه منها بمرأى ومسمع... ذلك صديقها الوحيد في بلد لم تأنس فيه إلى صديق؛ أتراه يعرفها ويعرف أين هو من نفسها؟... أما هي فتعرفه عرفان الأخ والولد؛ وتعرف تاريخه وماضيه منذ كان وقبل أن يكون...

من هذه الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام، أبصرت أمّه عروساً في جلوتها، وأبصرت أباه؛ ومن هذه الشرفة نفسها رأته جنيناً في بطن أمّه تخيط له قمصه ولفائفه؛ ومن هذه الشرفة جاءها البشير بمولده والناس نيام؛ ثم أبصرت ذات صباح طفلاً يحبو؛ ورأته من بعدُ غلاماً يقفز ويثب... ولكنه هو لم يعرفها بعد...

هذه هي حياة سنية: أما نهارها فجهاد ودأب بلا ونى، تغادر بيتها في الصباح الباكر إلى مدرستها، وتغادر مدرستها إلى بيوت تلميذاتها، فإذا جن الليل عادت؛ وأما ليلها فهذه الشرفة

وهذا الفضاء وهذا الغلام؛ فإذا أوى الغلام إلى فراشه، واختفى القمر وراء السحاب، وأسدلت الستائر على النوافذ المضيئة - نهضت سنية من مجلسها في الشرفة، فتفتح صندوقها وتحصي ما فيه ثم تأوي إلى أحلامها.

ومضت بضع سنين قبل أن يجتمع في صندوق سنية ما كانت تؤمّل أن يجتمع؛ وأيقنت - بعد صبر طويل - أنها من اليوم الذي كانت ترقب على مقربة...

...وغربت الشمس ذات مساء ولم تعد سنية إلى دارها؛ ثم عادت بعد العشية، واتخذت مجلسها من الشرفة وسرحت النظر، ولم يكن الطفل ثمة ولكنها لم تفتقده في غيبته؛ وأوت إلى فراشها ولكنها لم تنم حتى انتصف الليل؛ وتراءى لها الطفل في منامها وكان معه أبوه، ثم أصبحت...

وراحت تُعد عدة السفر إلى أمها تطلب مشورتها في أمر ذي بال...

وابتسمت أمها فرحانة، ثم غشيتها كآبة وهتف بها هاتف؛ ثم عادت فابتسمت ونهضت إلى مصلاها تناجي ربها وتدعوه لابنتها العزيزة أن يتم لها ما تأمل...

وتغيرت سنية منذ اليوم وتبدّلت وحشتها أنساً ومسرة، وهجرت الشرفة فلم تكن تغشاها إلا حين تكون على موعد ترقب له الطريق؛ وأنست غرفة الاستقبال بعد وحشة

وطرقها الزائر المنتظر منذ سنين، وتعددت زيارته؛ وقالت له سنية ذات مساء وقد جلسا جنباً إلى جنب في الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام وأشارت إلى بعيد -: أنظر يا رشاد؛ إنه طفل ظريف!

ونظر (رشاد) حيث أشارت سنية، وقال: نعم، وأظرف منه أن تكوني أمه!

وطأطأت الفتاة رأسها وتضرّجت وجنتاها وسبحت في حلم لذيذ، وتراءى لها غلام يقفز ويثب بين أبيه وأمه، في مثل مجلسهما من هذه الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام!

وجلست سنية ورشاد يتبادلان الرأي ذات مساء؛ وقال لها:. . . وإني لأتمنى ألا توافق الحكومة على بقائك في العمل بعد الزواج؛ لتكوني لي وحدي!

وقالت: ولكن أمي يا رشاد. . .!

وأجابها: وعليّ أن تكون أمك راضية سعيدة!

واطمأنت سنية وسُرّى عنها ما كان يقلقها منذ أيام؛ وجلست إلى مكتبها تكتب إلى الحكومة تلتمس الإذن في الزواج.

ولم يطل بهما الانتظار، ولم يقلقهما جواب الحكومة؛ فقد كانت سنية متوقعة من قبل ألا يؤذن لها؛ وكانت مطمئنة إلى وعد خطيبها بأن يرضي أمها!

وراح الفتى والفتاة يعدان العدة ليوم قريب.

وانتقلت سنية إلى بيت زوجها، وشهدها صواحبها عروساً في جلوتها، وشهدت نفسها؛ وكانت النوافذ المضيئة ترمي أشعتها إلى بعيد؛ وكان في الشرفات العالية التي يكتنفها الظلام عيون تنظر.....

...ومضت أشهر، ونظر الجيران فإذا سنية جالسة إلى جانب النافذة تخيط قمصاناً ولفائف؛ وفي هدأة الليل والناس نيام حل على الأسرة ضيف جديد، وارتفع صوته يعلن البشرى بمقدمه.....

ثم استيقظت سنية من الحلم الذي ضرب على آذانها عاماً وبعض عام؛ ونظرت، فإذ هي وطفلها وحطام الذكريات؛ ولم يكن الرجل ثمة ولم يكن الصندوق...!

وقبّلت فتاها في جبينه وقالت وفي عينيها دموع: لا عليك يا بني؛ لقد خسرت الرجل ولكني كسبتك؛ فليذهب أبوك حيث يشاء، ولتبق لي أنت!

وخرجت تلتمس الرزق، واتخذت طريقها إلى المدرسة، ولكن المدرسة كانت قد أغلقت أبوابها!

وسعت إلى رئيس الديوان تلتمس الشفعاء إليه ليردّها إلى عملها، فأغلق دونها بابه؛ ووقفت في مفترق الطريقين تنظر، ثم سلكت إحداهما...

وعاد الرئيس من الديوان إلى داره، وانفتح باب السيارة ونزل، وسبقته إلى الباب امرأة؛ وهمّ حاجبه أن يمنعها ثم كف.

وهتفت المرأة في ضراعة: سيدي بحقّ ولدك...!

قال: ولكنك خُيّرت من قبل فاخترت أن تكوني أمّاً؛ فهيهات...

وبرّقت المرأة وصرخت في غيظ: ولكنك أنت رضيت أن تكون أباً... فلم لا خُيّرت أنت؟... كن أباً، أو كن رئيساً في الديوان، إن صح ألا يجتمعا...!

وسكت الرجل وهتف هاتف من وراء حجاب: (ولكن ثمن الأمومة أغلى...!)

... ودخل (الرجل) داره وأغلق بابه ليجلس بين زوجه وولده فيقص قصته؛ ومضت (المرأة) على وجهها يائسة ذليلة، لتدفع وحدها ثمن الأمومة الغالي!

obeikan.com

جناية رجل

. . . أجابني صاحبي:

نعم، لقد كان ذلك عملاً لا ينبغي، على أنه قد أَوْدَى بشرف امرأة، وهناءة رجل، وضَيْعِة طفل يَتِمَ في حياة أبويه، وصيّرني في عين نفسي وفي عيون الناس إلى ما ترى. . . وما أحاول أن أبرئ نفسي؛ بل إنني لأشعر أحياناً أن عليَّ وحدي إثم هذه الجناية التي لم أقترفها ولم يكن لي يدٌ فيها!

وصمت صاحبي برهة وهو يحدِّق في وجهي بعينين فيهما حيرة وارتياب؛ ثم استأنف الحديث:

بلى، وأقسم لك يا صاحبي، ولكنني كنتُ رجلاً كما تعرف؛ فلم يكن لي أملٌ في امرأة ولم يكن لامرأة حظٌّ مني؛ وأين تجد المرأة عندي ما يُغريها بي وأين أجد من نفسي؟. . . لقد كنت أعرف نفسي عرفاناً حقاً، ولم يكن يخفى عليّ ما يتحدَّث به الرجال والنساء عني، وما تتحدث به إليّ مِرآتي؛ لقد كنت وما يطيب لي أن أنظر إلى المرآة، كأني حين أنظر إلى صورتي بإزائي أرى شخصاً غريباً عني بغيضاً إليّ لا أطيق أن أراه أو أنظر إلى صورته؛ وحين يتفق لي أن أرى شخصاً في وجهه بعضُ ما أعرف لنفسي من الدمامة، أزوي عنه وجهي، كأنما يذكّرني مرآه بشخص أكره!. . .

أراك تنكر عليّ ما أقول يا صديقي، ولكن ذلك كان هو رأيي في نفسي على حقيقته؛ وقد يكون رأياً غريباً، فما أعرف فيما قرأت أو سمعت أن أحداً كان له في نفسه مثلُ رأيي في نفسي وإن بلغت دمامته الحد الذي يوشك أن يبعده من حقيقته الآدمية!

. . . وكنت مؤمناً بأن القدر الذي تكتنفني صروفه منذ الطفولة قد هيأني لشيء غير ما يتهيأ له الرجال في عالم المرأة، من الحب والزواج والأبوّة؛ كأنما كانت تلك العلة التي شوّهتْ وجهي صغيراً، وتلك الحادثة أصابتني بالعرج صبياً - تحوُّلاً في إنسانيتي، وحجازاً بيني وبين أحلام الطبيعة التي تهمس في الدم وتوسوس في القلب. وشعرت منذ فقدتُ أمي ولم أتجاوز السابعة بعد، أن آخر سبب كان يربطني بالمرأة قد انقطع، فليستْ من دنياي ولستُ من دنياها؛ وعشت عمري في هذه الحقيقة من بعد، لا تنظر عيناي إلى امرأة ولا أحس وقع نظرة امرأة، ولو قد أحسستها مرة لخجلتُ، لعلمي أنها لا تنظر حين تنظر إليّ - رجلاً مما يقع في عالمها، ولكنها تنظر مسخاً مشوَّهاً يشير إلى آية من آيات القدرة الخالقة!

. . . كذلك كنت عند نفسي حتى لقيتها، فأرتني من نفسي صورة غير ما كنت أعرف لنفسي؛ وكشفت لي عن صورتي في مرآتها!. . .

. . . كنت يوم ذاك جالساً إلى مكتبي أعالج عملاً دقيقاً لا يصلح أن يتولاه غيري، حين دخل عليّ حاجبي يؤذنني أن سيدة تريد لقائي؛ ونهرت حاجبي إذ قطعني عن عملي من أجل امرأة؛ وما لي وللنساء؟ ما شأنهن وشأني؟

ودعوت شاباً من مساعديّ ليلقاها ويتقصى أمرها فيخبرني؛ وكثيراً ما كنتُ أندبه لمثل ذلك فيكفيني ويجزئ عني؛ ولكنه في هذه المرة لم يُغْنِ عني شيئاً، وعاد إليّ ينبئني أن السيدة لا تريد لقاء أحد غير؛ وابتسمتُ على غيظ حين أنبأني ذلك؛ فقد كنت أعلم من طول خبرتي في هذا العمل الذي أتولاه، ما تدعوني له مثل هذه الزائرة؛ فما هو إلا لاعتقادها إنني - وأنا رئيس المكتب - أقدَرُ على قضاء حاجتها من غيري، وإن كانت حاجتها من التفاهة بحيث يستطيع ساعي المكتب أن يقطع فيها برأي!. . . ذلك رأي النساء جميعاً؛ وإن إحداهن ليبلغ منها الإلحاح في طلب لقائي أن تضجرني وتحرج صدري، فلا أجد عقاباً لها على ذلك إلا أن أخرج إليها فتراني. . .

. . . ولم أكن في ذلك اليوم متهيئاً لاستقبال أحد، ولم تكن بي رغبة إلى عقاب امرأة؛ فطلبت إلى حاجبي أن يعتذر إليها، وخرجت السيدة ولكنها لم تلبث أن عادت، وعاد حاجبي يؤذنني برغبتها في لقائي؛ وتكرر بيننا الرجاء والاعتذار، ثم لم أجد بدَّاً في النهاية من الخروج إليها. . .

ورأيتها ورأتني، ولكني لم أر في وجهها ذلك المعنى الذي طالما رأيته في وجوه النساء حين أجلس إلى امرأةٍ منهم. ولأول مرة منذ ماتت أمي، جلست إلى امرأة أتحدث إليها وأستمع لما تقول، وإني لأحس في نفسي برد الراحة وروح الاطمئنان. لا أعني أنها ذكرتني أمي، فقد كانت أصغر كثيراً مما ظننت وأشبّ شباباً؛ ولكني شعرت إذ جلست إليها شعوراً لم أحسّ مثله منذ بضع عشرة سنة، منذ ماتت المرأة الوحيدة التي منحتني حبها واستحقت حبي!

كان في وجهها سماحةٌ وطهر، وفي عينيها نظرة طفل يرى كل شيء جديداً على عينيه، وقد افترَّت شفتاها عن ابتسامةٍ حزينة تكتم معنى وتفصح عن معنى.

لم أشك حين رأيتها أنها عذراء، فتاة على طبيعتها الطاهرة لم تطبعها الحياة بعدُ بذلك الطابع المصنوع الذي يجعل لكل شيء لونين في ظاهره وباطنه. وأقبلت عليّ تحدثني حديثها. لم يكن في صوتها ولا في نظراتها شيء يدل على أنها تراني رأي الناس وتنظر إليّ.

... أخشى أن أقول لك يا صديقي إنها كانت تحدثني كأنما تناجي حبيباً عزيزاً لقاؤه! ولكني كذلك شعرت وقتئذ!

ومضت في حديثها، ولم أسمع حرفاً واحداً مما قالت؛ إذ كنت وقتئذ في حديث مع نفسي؛ فلما أوشكت أن تنتهي من

عرض أمرها وراحت تسألني رأيي، بدأت أصغي إليها. . . وكان لها مشكلة معقدة تقتضي تدبيراً وأناة وحسن احتيال؛ وعنيت بأمرها.

أتراني يا صديقي في حاجة إلى التأكيد بأن عنايتي بأمرها لم تكن شيئاً على خلاف عادتي في مثل مشكلتها؛ ولكنك مصدقي ولا شك، فقد كنت إلى تلك اللحظة من كنت؛ ليس لي همٌّ إلا عملي وواجبي!

وزارتني بعدها في مكتبي مرة ومرة ومرات؛ وتوثقت بيننا أواصر المودة، وألفت أن تراني وأن تتحدث إلي، وألفت أن أستمع إليها، وكأنما كنت في نومة ثقيلة ثم استيقظت، وإنجاب عني غشاء صفيق كان يلقي علي كل شيء من أشياء الحياة ظلاً يبغضِّه إلي، وتزّينت لي الحياة؛ وكأنما كانت مرآتي صدئة فجلتها بأنفاسها فعادت مصقولة لامعة!

ليس يعنيك كثيراً يا صديقي أن تعرف كل شيء؛ ولكن الذي يعنيني أن تعرفه عرفان اليقين، إنني لم أتودد إليها ولم أحاول اجتذابها؛ فقد كانت أسرع إلي من خطرة الأمل؛ فما هي إلا مرات التقيناها حتى كان كل شيء منها يتحدث إليّ حديثاً أجد صداه في نفسي؛ ومن غير مؤامرة ولا تدبير، رأيتني امشي معها ذراعاً إلى ذراع في الطريق!. . .

لـم أنـم تلـك الليلـة ولـم أذق طعـم الغمـض، لعلـك تحسب ذلك يا صديقي فرحاً بتلك النعمة التي سيقت إليّ من حيث لا أدري! كلا، ولا بعض هذا، لقد سهرت تلك الليلة إلى الصباح في قلق وهم؛ وفي حديث بيني وبين نفسي كله تأنيب وملامة؛ لقد كنت موقناً إنني لست الرجل الذي تؤهله صفاته ليكون حبيباً يلم طيفه بخيال امرأة؛ ولم أكن من الغفلة بحيث أنسى بسهولة حقيقتي التي عشت بها ما فات من أيامي؛ وكنت خائفاً أن يكون قد بدر مني شيء على هوى أشعرها أملاً واخفي عنها حقيقة، فانقادت إليّ مخدوعة وعلى عينيها غشاوة.

بلى، لقد كنت سعيداً بحبها، ولكنني لم أحاول قط أن أشعرها معنى يدنيها إلي ويزيدني حباً إليها؛ وكان ضميري يخادعني حين كنت استمع إلى نجواه في نفسي قائلاً: (لا عليك ملامة إذ كانت تحبك دون أن تطلب إليها!) ويا لها خدعة! وهل زادها حباً لي إلا شعورها بأنها تجد لعواطفها في نفسي استجابة؟... وفي مرات كثيرة، كان يثوب إليّ رشادي ويغيب عني هواي، فأهم أن أقول لها وإنها لجالسةٌ بإزائي: (أنظري إليّ! هل ترينني أصلح للحب؟)، ولكني لم أجرؤ في مرة واحدة من هذه المرات أن أقولها؛ لأن هواي كان يغلبني على رأيي؛ فتقول لي نفسي: (أو ليست تراك دون أن تطلب إليها أن تنظر؟).

وحتى يوم أسلمت لي شفتيها وأغمضت عينيها في مثل غشيه الوحي، لم يقع في نفسي إلا أنه عمل منها لا مني، والقبلة المعسولة ما زال يرن صداها في قلبي!

ولكنني مع كل ذلك يا صديقي لم يغب عني قط، أن ذلك عمل لا ينبغي؛ كانت هذه الحقيقة قارة في أعماقي، على الرغم من هوى النفس وخداع الضمير؛ ولم أكن يومئذ أعرف، فكيف لو عرفت؟

. . . ومضت بنا الأيام على ما قدّر لي ولها، لم أحاول أن أسألها شيئاً ولم تحاول أن تخفي عليّ؛ ومع ذلك فقد ظللت دهراً لا أعرف، على غير إرادةٍ مني ولا إرادة منها، ولم تكن في يقيني إلا فتاةً على طبيعتها الطاهرة، لم يزل بينها وبين الحياة باب مغلق. . . وأغناني يقيني عن سؤالها، وحال بيني وبين التماس أسباب المعرفة إنني لم أكن أريد أن يكون مني عملٌ إيجابي يشعرها أن لي بأمرها عناية فأمد لها أسباب المنى!

ثم كان يوم وكانت الصلة بيننا قد توثقت حتى لا سرّ بيني وبينها، وجلست تتحدث إليّ، وعرفت. . .

يا لله!. . . ليتني كنت ادري! وهل كان يدور بخاطري يوماً أن هذه الفتاة التي بعيني هي امرأة، وهي زوجٌ قد انفتح الباب المغلق بينها وبين الحياة. . .!

لم تكن خادعةً فيما أعلم حين كتمت عني حديثها طوال هذه الأشهر، ولكنها لم تجد سبيلاً إلى أن تقول، فصمتت، فلما أمكنتها الفرصة جاء الحديث لوقته فراحت تقص عليّ. . .

وشعرت بالغيرة تلذغ قلبي لأول مرة، غير رجلٍ يحاول أن يستأثر بما لا يملك دون الذي يملك؛ ولكني لم ألبث أن فئت إلى رشادي واستيقظ ضميري، فرحت أوبخ نفسي على ما كان وأشبعها تعنيفاً وملامة، ولكني لم أجرؤ أن أقول.

لم يكن لها خيارٌ فيما فعلت. هكذا حكمتُ حين قصت عليّ خبرها؛ فقد ماتت أختها عن بنين وبنات وزوجٍ في سن أبيها له مالٌ وجاهٌ وشفاعةٌ ويد مبسوطة؛ وكانت هي يومئذ تلميذة في السادسة عشرة، دنياها معلم وكتاب ومسطرة. . . وعادت يوماً من مدرستها فإذا في غرفة الاستقبال كاتب وشهود، وباتت مُسمّاة على زوج أختها، ثم أصبحت زوجاً وأماً لبنين وبنات وما حملت ولا ولدت!

لم تفهم شيئاً مما مرّ بها إلا كما تفهم كل فتاة في بيت أبيها أن يقال لها قومي فتقوم، واجلسي فتجلس!

وانتقلت من دار إلى دار ولكن قلبها لم يزل على نقاوته وطهره، في عينيها نظرة الطفل، يرى كل شيء جديداً على

عينيه، وعلى شفتيها ابتسامتها الصامتة المبينة، وفي رأسها أحلامها، ثم التقينا.

... هذا ما قالت لي؛ وقال لي ضميري: ويحك يا شقي! إنك تحاول إفساد امرأة على رَجلها!

وقال لي هواي: وماذا فعلت؟ أيكون الاستماع إلى شقية بائسة تشكو بثها محاولة لإفساد امرأة؟ وزدت من يومئذ آلاماً إلى آلامي، وزدت إلى ذلك إيماناً بنفسي وأيقنت من يومئذ إنني شيء، وأيقنت إلى ذلك إنني في عمل لا ينبغي!

وحاولت منذ عرفت أن أبتعد عنها وإن قلبي لينازعني إليها، فلا أنا صممت فيما حاولت ولا هدأ قلبي؛ وعدت بين نزاع القلب وتأنيب الضمير في شقاوة وألم؛ ولكنني كنت بشقاوتي سعيداً!

ويلي! ليتني عرفت يومئذ كل شيء! أم ليتني مضيت فيما صممت ولو كان فيه تدميري وهلاكي؛ إذن لاحتفظت لنفسي براحة الضمير إذ فقدت راحة القلب! ولكنني لم أكن اعرف؛ وكان الدهر يدخر لي البقية...

... ولقيت صديقي (فلاناً) على غير ميعاد؛ وجلس يتحدث إلي... وأرهفت أذني للسمع، وخيل إليّ وهو على مقربة مني وأنا أستمع إليه أن بيني وبينه من البعد مسافة تسافر فيها الأحلام وتثوب؛ وجثم على صدري كابوس مفزع لا يخف ولا

يتحلحل؛ وهممت أن أتكلم فما أطقت الكلام؛ ودار رأسي مثل خذروف الوليد بين قوتين تتجاذبانه، وتناثرت أشلاءً على مكاني...

ولما أفقت بعد برهة لم يكن بجانبي أحد غيره، ورن صوته في مسمعي: (رفقاً بنفسك يا صديقي! إنك تتعب نفسك أكثر مما تطيق!).

ثم خلفني وآلامي، ومضى! إذن فهو ذاك؟ إنها زوجته! وهجرت المدينة يا صديقي إلى حيث أحاول التكفير عن خطيئتي والفرار بنفسي؛ وهجرتها بلا وداع، ولكنها لم تتركني وشأني؛ لقد أصابها من ذلك مثل سعار الجوع في الكلب الضالّ

وكان زوجها يتحدث إليها حديثاً من حديثه، فحسبته يعرّض بها، فثارت به، ثم اندفعت في ثورتها؛ وابتسم الرجل وتمتم بكلمات، وألقى الشيطان في أذنها كلمات غير ما قال؛ فزادت ثورةً وهياجاً، وقالت: (بلى، إنني أحبه، وسأتبعه إلى آخر الدنيا!).

وعلا بكاء طفل، طفلٌ رضيع لم يفتح عينيه على الحياة إلا منذ أيام معدودات؛ وقلب الرجل عينيه بين الطفل وأمه، وقال في همس: (إذن فهو ولده؟..)، وفتحت الأم فمها مدهوشة وبرّقت، وسألت: (أتراه يظن..! ويلي!).

ونالني رشاشها على مبعدة يا صديقي وما جنيت جناية.

. . . ذلك كل ما كان من أمري وأمرها؛ أم تراني جنيت إذ أحببت امرأةً أحبَّتني، أنا الذي عاش ما عاش من عمره لم يؤمل أن تعطف عليه امرأة؟. . . نعم، لقد كان ذلك عملاً لا ينبغي، ولكن. . .

قلت: (ولكنه أودى بشرف امرأة، وهناءة رجل، وضَيْعةِ طفل يَتِمَ في حياة أبويه، وصيّرك في أعين الناس إلى ما ترى. . . أنتَ ما جنيت يا صديقي، ولكن ثم جنايةَ رجل؛ فمن جناها؟).

obeikan.com

لقاء!...

كان النَّدِيُّ مزدحماً بالسامرين على عادته كل مساء؛ قد تحلقوا حول الموائد جماعات جماعات، في البهو، وفي الشرفات، وعلى الطَّوار؛ وكان الميدان الفسيح الذي يشرف عليه الندي، مراد العيون ومستراح النظر؛ فما تقع العين منه إلا على منظر أنيق ومرأى فاتن، والسيارات تتهادى ذاهبة آيبة تحمل كل منها قصة حب أو تُسرّ حديث هوى، وأسراب الملاح تتواكب في مطارف الفتنة وعطر الشباب غادية إلى ميعاد أو رائحة إلى أمل، ونسيم المساء الهادئ ينفح عطره ويهمس في كل أذن حديثه...

... وكان ثمة بضعة نفر جلوساً إلى مائدة مستديرة في ظل وارفة لفّاء يتجاذبون الحديث ويتبادلون الفكاهات في أنس ومسرة. أولئك (رفيق) وأصحابه

بضعة نفر لا يشغلهم من هم الحياة ما يشغل الناس، جمعهم الشباب على هوى مشترك، وألفت بينهم الحياة على رأيٍ جميع، واجتمع لهم من أسباب النعمة ما أغنى بعضهم عن بعض فقرّب بعضهم إلى بعض؛ فهم قدمٌ واحدة بكل سبيل، وقلب واحد في كل هوى، ورأيٌ واحد في كل مغامرة من مغامرات الشباب. ذلك مجلسهم كل مساء حيث يلتقون

فيقص بعضهم على بعض من حديث الهوى والشباب؛ فلكل فتاة من فتيات المدينة بينهم حديث؛ ولكل منهم من حديثها خبر، ولكل غاديةٍ ورائحةٍ لحظة عين وبنتُ شفة.

على أن رفيقاً وأصحابه لم يجتمعوا الليلة لمثل ما يجتمعون كل مساء؛ فإن لهم اليومَ لشأنا يشغلهم عن لحظات العيون وبنات الشفاه وأقاصيص الهوى والشباب؛ فقد غدا عليهم (رفيق) يؤذنهم بخبر لم يكن لهم في حساب؛ لقد اعتزم رفيق أن يتزوج...

وا أسفا! لم يكن يحسب هؤلاء الأصحاب أن يصير اجتماعهم بعد تلك السنين إلى شتات، وأن يكون رفيق أسبقهم إلى الفراق!... أتراه يكون لهم بعد الزواج ما كان لهم قبله؟ من يدري؟ بل إنهم ليكادون يدرون؛ فما يتأتى له أن يلقاهم بعدُ ويلقونه، وإنه لزوج ورب دار...

وتناولوه بألسنتهم وركبوه بالمزاح والدعابة، وهو يستمع إليهم مبتسماً في صمت، ثم مضى ومضوا...

لقد ذاق رفيق من ألوان اللذات ما ذاق، وباع في الحب واشترى، وربح وخسر، وتقلبت على عينيه مناظر لعل مثلها لم يجتمع لشاب آخر في مثل سنه؛ على أنه قد مل ذلك جميعاً وضاقت به نفسه، وحن إلى حياةٍ هادئة يحياها بين زوجٍ تحنو عليه، وولد يجدد أمله؛ فاعتزم أن يتزوج وأتاح لرفيق ما لقي

من تجارب الحياة، أن يعرف من شئون المرأة أكثر مما يعرف الشباب؛ فلم يكن تعجبه فتاة ممن رأى وعرف فيرضاها زوجة يملِّكها داره ويأتمنها على سعادته؛ إذ كان يعرف أكثر من غيره ما وراء هذه القشور التي يتزين بها النساء في مجالس الرجال تجملاً من غير جمال؛ فزاح إلى أمه العجوز يسألها أن تختار له ويصف لها ما يحب في المرأة وما يكره.

وكان عجيباً من فتى مثل رفيق - رأى من رأى وعرف من عرف - أن يتوسل بأمه إلى اختيار زوجته؛ ولكن ما رأى وما عرف هو الذي دعاه إلى ذلك؛ فقد كان مما جرّب لا يثق بواحدةٍ ممن عرف؛ فراح يتوسل بأمه أن تكون سببه إلى من لم يعرف.

تلك مسألة أخفاها رفيق على صحابته، ولو عرفوها لنسبوه إلى فساد الرأي وأفن التفكير؛ فما ينبغي لفتى مثله من أبناء الجيل الجديد أن يخطب فتاةً إلى نفسها من وراء حجاب، وأن ينظر إلى زوجته بعيني أمه؛ ولكنه كان موقناً يقيناً لا شبهة فيه، أن تلك الوسيلة التي ينسبها أصحابه إلى الرجعية وفساد الرأي وأفن التفكير، هي أسدّ وأحكم من اختيار فتاةٍ كبعض من يعرف، تقلبت على أعين الشبان وتنقلت بينهم من ذراعٍ إلى ذراع كجارية النخاس!

لو أن أحداً رأى له هذا الرأي منذ سنين، لسخر منه واستهزأ به ورماه بما يرميه به صحابته اليوم؛ ولكن تجارب الحياة لا تدع لذي رأيٍ أن يثبت على رأيه إلا أن يكون أحمق ليس له رأي ولا إرادة!

وراحت أمه العجوز في حاشية من صواحبها تطرق الأبواب وتهتك الأستار لترى وتعرف وتتخير، لتعود إلى ولدها كل مساء فتقص عليه ما رأت وما عرفت؛ وكانت تعلم من شئون ولدها ما لا يجهل أحد؛ فمن ذلك كان حرصها على أن تتخير له فتحسن الاختيار؛ وعادت إليه ذات مساء تخبره:

لو رأيتها يا رفيق...! لها غُرة الصبح الطالع، وابتسامة الأمل المشرق، وحياء الزنبقة البيضاء تحت عيون الزهر... لله هي يا بني! خارَ الله لك!

وقال رفيق: وددت لو رأيتها يا أمي!

ومطّت أمه شفتيها تنكر عليه، وقالت: وددتُ يا بني، ولو أنك رأيتها ما زادت في عينيك على ما أصف؛ ولكن، من أين لك؟ ما أرى أباها يسمح يا رفيق، ولو سمح أبوها ما أطاقت هي أن تتراءى لك... إنها...

وصمت رفيق وعاوده قلق الشباب، وراح يؤامر نفسه: كيف يطيق أن يقطع برأي في المرأة التي يهم أن يشركها في عمره وما رآها؟

ثم ثابت نفسه إلى الاطمئنان والرضا رويداً رويداً، وغلبه عقله على هواه؛ فقال لنفسه: ذلك أحب إلي؛ وإن يقيني بطهارتها لأطيبُ لنفسي من اليقين بجمالها؛ وهل رضيتُ أن أخطبها من وراء حجاب إلا زهادةً في الجمال المبذول لكل ناظر؟

وذهب رفيق يتقصى خبرها ويسأل من يعرف عما لا يعرف، وأتاه جواب ما سأل؛ ولم يبق إلا أن يراها ليُبرم أمره؛ وأي حرج في ذلك؟

وعادت أمه تسعى مسعاتها بينه وبين عروسه؛ ثم عادت تحمل إليه الإذن في أن يراها يوم يقدم لها هدية الخطبة

... لم ينقطع رفيق عن صحابته ولم يشغله أمره عن مجلسه وإياهم كل مساء؛ فما كانت له طاقة على فراق بائن إلى غير لقاء؛ وكذلك لم يهجر ما كان من عادته وإياهم حين يتحلقون حول المائدة المستديرة على الطوار، يتجاذبون الحديث أو يتبادلون الفكاهات، أو يُتبعون أعينهم كل غادية إلى عمل أو رائحة إلى ميعاد، أو يتداعون إلى سهرة حمراء في عُش من عشاش الحب المأجور إلى أن تشيب ذؤابة الليل!

كان يعلم أنه عما قليل مفارق هذه الحياة الصاخبة التي عاش فيها عمراً من عمره؛ فلا عليه أن يتزود لما يأتي من لياليه، لا يمنعه عن ذلك ما يشغله من أمر يعد له عدته ويهيئ

أسبابه. . . وتوزّعته شئونه، فنهاره تأهب واستعداد، وليله ليلُ الهوى والشباب!

أرأيت إلى الصائم يتأهب لنهارٍ ظامئ جوعان بالمائدة الحافلة بأطايب الطعام والشراب؟

كذلك كان رفيق في إسرافه على نفسه وفي غلبة هواه!

وراح يوماً لموعده فجلس يقص على صحابته من مغامراته:

(. . . وكنتُ وحدي إلى هذه المائدة أنتظر، وغاظني إنني بكّرت فلم أجد أحداً منكم آنس إليه، وتخايلت لعيني فتاة على مبعدة. . . ثم تجاوزتني ومضت؛ ومضيت في أثرها. . . . . .)

وتقصّف عليه أصحابه يستمعون إليه؛ فإنه لفارس هذا الميدان غير منازع، ومضى في قصته:

(. . . وقلت لها وهي جالسة إلى جانبي على الصخرة الناتئة والأمواج تحت أقدامنا تصفق على الشاطئ الغضبان: (إنك أول من أحببت. . .!) فنظرت إلي ساخرة وقالت: (صحيح.؟) ثم انفجرت إلي ساخرة ثم انفجرت ضاحكة. قلت: (وما يمنع. . .؟) قالت وتكاد تغص بضحكتها: (تلك كلمة ليست جديدة على أذني، كم مرة سمعتها قبل أن تلفظها شفتاك!)؛ وحدّقت في وجهي بعينين فيهما تصميم وإرادة، كأنما تتحداني لتبلو إرادتي، وزويت جبيني وتحوّلتُ ناحية أنظر إلى رشاش

الماء يتواثب تحت أقدامنا وقلت: (ولكنك لن تسمعها بعد، ولن أقولها!)... ورحت أجمع طائفة من الحصى فأقذف بها الماء وأصابعي ترتعد؛ إذ لم يكن يعنيني إلا أن أثأر لكبريائي...

قال رفيق: وتخاذلتُ سريعاً حين رأت وجهي مصروفاً عنها؛ فدنت مني وهي تقول: (أنظر، أترى هذين الطائرين؟) ونظرتُ ونظرتْ، والتقت عينان بعينين، وشفتان بشفتين!... ثم...

قال الذي عن يمينه: ثم صحوتَ من النوم!

وعَلَت ضحكاتُ الجماعة، وسكت رفيق، ومضى أصحابه يتجاذبون الحديث...

... ودنا الموعد الذي حدّده رفيق ليلقى عروسه فيقدّم لها هدية الخطبة؛ وكأنما أحب أن يهيئ نفسه لهذا الحدث الجديد، فانقطع أياماً عن موعد أصحابه، ومضى يزوّر في نفسه الكلام الذي يلقى به خطيبته يوم يلقاها؛ أتراه كان يخشى أن يخونه بإزائها بيانه وخلابتُه وما عجز قبلها في مجلس فتاة قط؟ تُرى ماذا يقول الناس في هذا المقام؟ وتواردت على خاطره كلمات كثيرة، كلمات طالما جرى بها لسانه في مجالس الفتيات فكان لها في نفوسهن فعل السحر؛ ولكنها جميعاً على لياقتها في هذا المقام وصدقها في التعبير عن حقيقة موضعها،

لم ترُق له؛ كأنما كان ينزه لسانه في خطابها أن يلقاها بكلمة لم ينطقها قط إلا كاذباً ولم يلقَ بها قط فتاةً تستحق الاحترام!

وأعجزه القول حين وجد الحاجة إليه، إذ كان كل جديد في لغة الحب الصادق قد حال في لسانه عن معناه الحقيقي إلى معنى وضيع من معاني الخداع والغش والتغرير؛ فما ثمة إلا كلام بالٍ قد أخلقه التكرار، أو كلام ساقط قد نسخه الكذب وأحاله عن معناه...!

وضحك رفيق حين أحس من نفسه العجز عما يريد، وخطر بباله حديث الناس عن عجز المحبين عن التعبير حين يتراءى العاشقان وجهاً لوجه وتتناجى العيون! فسأل نفسه: أتراني عشقتها؟

ثم جاء الميعاد...

وسبق البشيرُ يؤذن بمقدمه؛ وجلست فتاةٌ تنتظر، وفي رأسها أخيلة تتراءى وفي قلبها أمل...

وقال رفيق لنفسه والسيارة تقله إلى هناك: ينبغي أن تكون هي أول من أحب؛ أليس كذلك...؟ بلى، ومن ذا يستحق الحب غير الفتاة التي أهم أن تشركني في عُمري؟

وقالت الفتاة لنفسها وهي جالسةٌ مجلسها تنتظر: نعم، ولمن تهب الفتاة قلبها غير الشاب الذي تشركه في عمره؟

ودق الجرس، ودخل رفيق تسبقه البشرى. وعلى الكرسي المذهب في صدر غرفة الاستقبال جلس ينتظر، وكان إلى جانبه كرسيٌ خال؛ ثم انفتح الباب ودخلتْ...

وتراءيا وجهاً لوجه، وعرفها وعرفته... وهم الفتى أن يقول: (أنت أول من...) ثم سكت؛ وتهيأت الفتاة لتقول، ثم سكتت...

ودوّى في أذنيه مثلُ هدير الموج يتواثب رشاشه إلى وجهه، ودوَّى في أذنيها: كمجلسهما هنالك في يومٍ قريب... وطأطأت الفتاة رأسها في خزي، وطأطأ الفتى رأسه؛ وثقل على الفتى والفتاة موقفهما، وأحسا مواقع النظرات تأخذهما من كل جانب، فمشيا صامتين إلى مجلسيهما؛ وتبادلا نظرةً أخيرة أغنتهما عن الكلام.

ولم تتحرك شفتاه بكلمة، ولكنها سمعته يهمس في أعماقها ساخراً: (أنت أول من أحببت!!)

ولم تنطق شفتاها، ولم تجب؛ ولكن صوتاً من أعماق الماضي كان يهمس في نفسه: (... تلك كلمة... كم سمعتها أذناي قبل أن تلفظها شفتاك!!)

وتحوّل وجهه إلى ناحية وهو يقول: (ولكنك لن تسمعيها بعدُ، ولن أقولها!!)

وراحت أصابعه تعبث بحبات العقد الغالي فتتناثر على البساط كأنها حصيات من رمل الساحل؛ وعاد هدير الموج يدوّي في أذنيه ويتواثب رشاشه إلى وجهه؛ ونهض، ثم اتخذ طريقه إلى الباب في صمت!. . .

obeikan.com

أمنية تحققت...!

كانت (سمية) جالسة إلى مكتبها في الغرفة العليا من إدارة (شركة المبيعات الوطنية) وبين يديها الآلة الكاتبة تنقر عليها بأصابعها وهي تترنح وتهتز في مرح ونشوة كأنما توقع لحناً موسيقياً تناجي به أمنية عزيزة من أمنيات الشباب، وكان على شفتيها ابتسامة راضية كأنها من الأمل الذي تأمله على ميعاد؛ وإنها لجالسة مجلسها ذلك منذ ساعات لم ترفع رأسها ولم تبرح مقعدها، ولكن في وجنتيها حمرة ناضرة كأنما هي عائدة لساعتها من مجلس قصف وشراب؛ وكان في السماء برق ورعد ومطر، ولكن في قلبها هدوء الثقة وروح الاطمئنان.

وفرغت (سمية) من نقش الرسالة التي بين يديها، فكفت أصابعها عن الحركة وراحت تخلص الورقة من بين أضراس الآلة الكاتبة وهي تغني في صوت هامس أغنية من أغنيات الهوى والشباب. ثم نظرت في ساعتها وهمت أن تنهض لميعاد الغداء؛ ودق الجرس، وهبت سمية واقفة لترد تحية المدير الشاب، ثم استأذنت ومضت معجلة إلى مثواها حيث تتوقع أن يكون أخوها في انتظارها لموعده على الغداء...

لقد كانت سمية سعيدة بحياتها على ما فيها من نَصَب وجهد ورزق محدود؛ إذ كان لها نفس راضية قنوع، لا تتطلع إلى

ما لا تملك، ولا تعرف من أيامها غير اليوم الذي تعيش فيه؛ فلا هي تذكر ماضياً تأسى عليه، ولا غداً تتشوق إليه؛ فوجدت سعادة الرضا حين فقدت سعادة المال ورفاهة الغنى، وتعوضت من شيء بشيء.

على أنها لم تكن كذلك في ماضيها؛ فقد كان أبوها رجلاً من رجال المال، وكان له جاه وصيت وشفاعة، ولكنها لم تدركه حين أدركته إلا شيخاً حُطمة قد لبسه الدهر فأخلقه وذهب بماله وجاهه، فلم يترك لها حين آن أوانه إلا حطاماً من الذكريات، وخلفها وأخاها وحيدين فقيرين تتدافع بهما أمواج الحياة من شاطئ إلى شاطئ غُثاء من غثاء البحر أو زبداً طافياً على الماء!

على أن من كرم الله على سمية أنها لم تفتح عينيها للحياة إلا على نور ذبالة توشك أن تنطفئ؛ وباكرها اليُتم والفقر قبل أن تذوق سعادة الاجتماع ورفاهة الغنى؛ فلم تشعر بمرارة لما صارت إليه، إذ كانت لم تشعر قبل بما كانت فيه؛ وتناولت الحياة كما عرضت لها...

وراحت سمية وأخوها يسعيان لرزقهما في رضاً واطمئنان، كما يسعى كل ساعٍ إلى رزقه في غير تبرم ولا سخط؛ ووجد أخوها عملاً في مصرف من مصارف المال يضمن له الكفاف؟ واستخدمتها شركة المبيعات الوطنية كاتبة حاسبة

لقاء أجرٍ معلوم يقوم بحاجتها ويفضل؛ وزادها شعورها بأنها كاسبة مأجورة - وإنها لفتاة - زهواً وسعادة واعتداداً بنفسها. ولم يكن هيناً أن تجد فتاة مثل سمية عملاً ففي مثل الشركة التي استخدمتها؛ لولا أنها ابنة أبيها وأنه كان، وكانت له على شركة المبيعات الوطنية أياد تتقضيها الوفاء، فاستخدمت سمية عطفاً عليها وعرفاناً بأيادي أبيها، ولكنها لم تكن تدري، وكان أكثر من تعرف عطفاً عليها وتشجيعاً لها المدير الشاب (شفيق).

. . . إن غداً يوم العيد؛ هذه أسراب الفتيات يزحمن الطريق ويملأ السيارات العامة ومراكب الترام، رائحات غاديات من متجر إلى متجر ينتقين ثياب العيد؛ وهذه أفواج الشباب يخطرون في مرح ونشوة على أرصفة الشوارع وعلى أبواب المتاجر يتأهبون لاستقبال العيد؛ وهؤلاء آباء وأمهات، وصبيان وبنات، في عيونهم نظرات البشر، وعلى قسماتهم آيات المسرة؛ وسمية بين هؤلاء وأولئك لا تلقى بالاً إلى أحد منهم، مُسرعة عجلى إلى مثواه حيث تتوقع أن تلقى أخاها في انتظارها لموعده على الغداء. . .

لقد أوشك شهر أن ينتهي ولم تجلس معه مرة واحدة إلى المائدة، فإن مواقيتهما لمختلفة، وإن عملها في المكتب ليقتضيها أن ترابط هناك كل ليلة إلى لمساء؛ فلا تلقى أخاها إلا

رائحاً إلى فراشه، أو غادياً على عمله في الصباح وهو عجلان؛ ولكن غداً يوم العيد؛ فما أحرى أن تفرغ له قليلاً ويفرغ لها وأن تعد له المائدة التي يشتهيها، وأن يجلس إليها ساعة وتجلس إليه!

وهيأت سمية المائدة وجلست تنتظر، وأُذنها إلى كل خفقةٍ نعل على سُلم الدار تترقب مطلعه... وسرحتْ عينها على المائدة بين ألوان الطعام فاستشعرت الرضا؛ إنها لمائدة حافلة؛ ولكن أين أخوها؟ إنه لم يحضر بعدُ وقد مضى على موعده ساعة... وسمعتُ طرقاً على الباب فخفتُ إليه؛ وكان الطارق ساعي المصرف يُؤذنها أن أخاها لن يحضر لموعده، لآن عمله هناك يشغله اليوم عن مشاركتها في مائدة العيد!

وأغلقت سمية الباب ودخلت الدار وحيدة؛ ووقفت في الشرفة برهة تنظر عيدها وعيد الناس؛ وكان في الشرفات المقابلة رجال ونساء، وبنون وبنات؛ وهتفت: يا أخي! الله لك ولي.!

بلى، لم تكن سمية من بنات جيلها؛ ولكن في أعرقها من دمٍ أُمها حواء؛ وألقى الشيطانُ في قلبها أمنيه...

وعز عليها أن يكون غداً عيد الناس جميعاً ولا عيد لها، فتمنت، وكانت متواضعة في أمنيتها... فلم تبلغ بها المنى أن تكون مثلَ فلانة وفلانة ممن رأت وعرفت، ولم تتسامَ إلى الأمل

بأن تكون من ذوات الغنى والجاه والدلال، ولم تنس الحقيقة التي تعيش فيها فتأمل أن تتغير حياتها من حال إلى حال؛ ولكنها تمنت... تمنت على الله الذي يهب للناس سعادة العمر أن يذيقها حلاوة هذه السعادة حيناً ثم... ثم يسلبها...

ورفعت يديها إلى الله داعيه: يا رب! لا أريدها إلا مذاقاً أعرف به كيف يعيش السعداء من خلقك...!

وأومضتْ في حواشي الأفق بارقة من نور، ثم خبت...

وسمعت سمية طرقاً على الباب، فأسرعتْ إليه لترى.. (شفيق...!)

وظل المدير الشاب واقفاً بالباب وعلى شفتيه ابتسامه مستحية وفي عينيه رجاء، وهَمسه: أتأذنين يا سمية!

وأذنت له، فدخل ودخل وراءه ساعيه يحمل إلى سمية هدية العيد؛ وقال الفتى وقد اطمأن به المجلس: سمية، لعل زيارتي لا تسوءك يا آنسه! لقد طالما راودتني نفسي فنهنهتها، ثم هاأنذا وتضرَّجتْ وجنتاها من حياء ثم أطرقت، واستطرد شفيق: ولعلي إذا اخترتُ هذه الليلة لأزورك هنا، أن يكون رجائي مقبولاً لديك... انظري إليَّ... ولا يضيقْ صدرك بي يا آنسة؛ إن عليَّ لك حقاً، ولعلني أستطيع أن أصارحك في يوم قريب؛ أما اليوم...

وخفق قلب سمية وترادفتْ أنفاسها؛ وأحس الفتى خجلها فلم يثقل، وتهيأ للنهوض، وتواعدا على اللقاء!

وتمتمت الفتاة شاكرة وفي عينيها دموع للتأثر!

وخلت سمية إلى نفسها تفكر... وخرج الفتى يفكر...

أما هي فتبدَّلتْ نفسها منذ الساعة واستغرقها حُلم عميق، فراحت تعرض ماضيها وحاضرها وما تأمل أن يكون في غد، وذاقت أول ما ذاقت من طعم السعادة معنى القلق...!

وأما هو فقد خفَّت نفسه وحلقت في سماواتها وأحس شعور الراحة والرّضا والاطمئنان، فمضى يدبر أمره، أطيب ما يكون نفساً بما فعل وبما يريد أن يفعل من أجل الفتاة التي رفعه أبوها وهيأ له سبيل الغنى والجاه والرياسة، فإنه ليحس بأن له عليه ديناً ثقيلاً يقتضيه الوفاء لابنته!

واسترسلت الفتاة في أحلامها...!

لقد شعرت منذ زارها شفيق وأهدى إليها هديته شعوراً لم يكن لها به عهد، فراحت تذكر ماضيها منذ رأته أول مرة، ثم كيف كانت بعد؛ ومضت تعلِّ وتفسِّر وتستنبط وتستشف حجاب الغد. هذه الابتسامة التي كان يلقاها بها كل صباح، وتلك النظرة التي يوّدعها بها كل مساء، وذلك الإحسان في المعاملة، وهذا السخاء في المكافأة، وهذه الهدية في ليلة العيد... إنها آيات بينات، وإنها لتزعم لنفسها أنها تعرف

دلالئلها؛ بل إنها لتحاول الليلة أن تقنع نفسها أن ذلك الشعور الـذي تشـعره منـذ قريـب، لـيس جديـداً عليهـا، ولكنـه سـر يستعلن، وضمير يتكشف، وحب كان يستره الحياء فانكشف عنه حجابه؛ بلى إنها لتحبه حباً صريحاً رسخت جذوره على الأيام في أعماق قلبها إلى أبانه! هكذا قالت لنفسها قبل أن تأوي إلى فراشها لتتم في منامها الحلم اللذيذ الذي بدأته في يقظتها..!

... وقال شفيق لنفسه وهو في طريقه إلى داره: حسن! لقد فعلت اليوم شيئا ولكن عليَّ أشياء؛ إن روح أبيها لتتمثَّل لي لتذكرني بواجبي أن أكون لها كما كان أبوها لي. زهرة غضة لفحتها أعاصير الحياة الهوج فاقتلعتها من منبتها إلى حيث ألقتها دامية على الشوك فلم تشك حظها ولم تتسخَّط، ما أحراها وأَحر بي أن أذيقها طعم السعادة التي حُرمتها، وأن يكون لها عيدُ مثل عيد الناس!... هؤلاء الفتيات اللاتي يغدون ويرحن مع أزواجهن أو آبائهن يحملان هدايا العيد ويرفلن في مطارف الشباب وإيراد السعادة، لسن أولى بما يتمتعن من سمية...! دينُ طالما هممتُ بالوفاء به، ثم نهنهت نفسي حذر أن أجرح كبرياءها إن مددت إليها بالإحسان يداً؛ ولكنه دين الحي للميت، لا حل منه ولا براءة، وقد استأذنتها فأذنتْ...

وراح شفيق لموعده صبيحة يوم العيد؛ وخرجا معاً يرودان مغاني الشباب ومجالي الأنس والمسرة ذراعاً إلى ذراع، وفي كل قلب حديثه ونجواه...

عاطفتان من أسمى ما غرس الله في قلوب البشر؛ أما قلبُ فيخفق بالحب وسعادة الآمل؛ وأما قلب آخر فتغمره سعادة الرضا وتملؤه عاطفة أسمى وأنبل؛ وأن في الحياة لما هو أسمى من الحب وأنبل...

وشعر كلاهما أن الله يظلهما بجناحي رحمته حين تحققت لكل منهما أمنيته...

ومضت الأيام بها وبه سعيدين لا يكاد يشغلهما عن أمرهما شيء؛ والشباب يجدد لسمية كل يوم مناها ويوقظ أحلامها وهي نائمة؛ ثم استيقظت فجأة...

وغدا عليها شفيق ذات صباح ينبئها...

... كانت سمية قد ذاقت في أيام قلائل من ألوان السعادة ما لم تتوقع أن يتهيأ لها في عمر مديد، ونالت - بمعونة صديقها - حظوة ورياسة في العمل الذي تتولاه لا تتسنى لمثلها بعد سنين من المثابرة والدأب، وزاد أجرها زيادة مرموقة تهيئ لمثلها العيش الرغد في أمان وثقة بالمستقبل؛ ولكن الغد السعيد الذي كان يتخايل لها في أحلامها ويقظتها، وتتنوره على البعد قريباً قريباً دون مد ذراع - كان يشغلها عن الشعور بما

هي فيه؛ فلم تكن من كانت، فتاه تعيش ليومها بلا ماض تأسى عليه ولا أمل تتشوق إليه؛ وهل يعيش العاشق إلا في أحد يوميه: أمسه وغده؟... ولكن هذا الغد الذي كانت تتوهم أنها تنظر إليه - حين تنظر - من وراء ستر رقيق، لم يكن إلا صورة في إطار ليس وراءه إلا الحائط الصلب، على حين كانت تظن أنها بالغة إليه بين صبح ومساء؛ ومدت يدها تهتك الستر لترى، فإذا الإطار الذي يمسك الصورة الخادعة يردها إلى حقيقة دنياها فيوقظها من أحلامها...

... وقال لها شفيق: أنت مدعوه غداً يا صديقتي إلى حفل زفافي...! وفغرت الفتاة فاها مدهوشة وهتفت: (حفل زفافك!)

إذن فهو لم يكن يحبها، ففيم كانت هذه العناية بها؟.. وعرفت بعد لأي، فسكتت؛ ثم خلت إلى نفسها فأرسلتْ عينيها أسفاً وندامة!

نعم، إنها لم تخسر شيئاً، ولكنها فقدت الأمل الذي عاشت له أياماً من حياتها كانت كفيلة بأن تنشئها خلقاً آخر؛ ولم يخدعها صديقها أو يزور لها الحقيقة، ولكنها هي خدعتْ نفسها فباءت بالخسران والحسرة!

قلبان كانا يخفقان لمعنيين متباعدين لم يتكاشفا معنى لمعنى، ألقى الشيطان بينهما أمنية فرقت بينهما على حين كان يرجى بقاء الوداد؛ ما ذنبها؟ وما ذنبه؟ ذلك حكم القدر!

وعادت سمية وحيدة إلى مثواها، كعادتها يوم كانت، ولكنها اليوم فتاة غير من كانت!

لقد نالت كثيراً مما كانت تتمنى، وحظيت من حظ الحياة بما لم تكن تأمل، ولكن...

وذكرت موقفها ذات ليلة، يوم رفعت يديها إلى الله داعية: (يا رب! لا أريدها إلا مذاقاً أعرف به كيف يعيش السعداء من خلقك...!)

هكذا كانت دعوتها، فهل كان شيء غير ما أرادت؟

لقد استجاب الله دعاءها، فأذاقها من ألوان السعادة ما لم تكن تتوقع، وزادها على ما أرادت؛ ولكنها لم تكسب شيئاً.

لقد باعت الغالي بالخسيس، يوم باعت سعادة الرضا بسعادة الأمل...!

obeikan.com